السنة الشريفة

محمود



السنة الشريفة

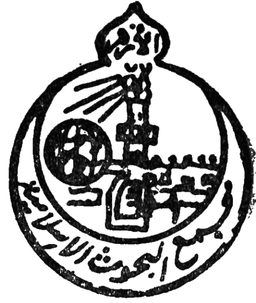
ومكانتها فى الاسلام

بقلم

فضيلة الإمام الأكبر
عبد الحليم محمود
شيخ الأزهر

الكتاب الثانى

السنة العاشرة صفر سنة ١٣٩٨ هـ ـ فبراير سنة ١٩٧٨ م



السُّنَّة الشريفة

ومكانتها فى الاسلام

بقلم

فضيلة الإمام الأكبر

عبد الحليم محمود

شيخ الأزهر

السنة العاشرة : الكتاب الثانى

صفر سنة ١٣٩٨ هـ ـ فبراير سنة ١٩٧٨ م

مقـــــدمة

بســـم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العـــالمين

يقول الله تعالى : من يطع الرسول فقد أطاع الله .

ويقول سبحانه : وما آتاكم الرسول فخذوه ، وما نهاكم عنه فانتهــوا .

ويقول : فلا ، وربك ، لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لايجدوا فى أنفسهم حرجا مما قضيت، ويسلموا تسليما.

وفى حديث صحيح يقول المقدام بن معدى كرب : « حــرم النبى صلى الله عليه وسلم أشياء يوم خيبر ، منها الحمار الأهلى وغيره ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : يوشك أن يقعد الرجل منكم على أريكته ، يحدث بحديثى ، فيقول : بينى وبينكم كتاب الله ، فما وجدنا فيه حلالا استحللناه، وما وجدنا فيه حراما حرمناه . وان ما حرم رسول الله كما حرم الله » .

وبعد :

فيحب القراء عـــادة أن يعرفوا شيئا عن ظروف تأليف الكتب التى يقرءونها ، لأن ذلك يضعهم فى جو يمهد لهم تقدير الكتاب فى صورة أعمق : حيث عرفوا الظروف والملابسات ،ولأن ذلك يقربهم من جو الكاتب النفسى ، ويدخلهم ، نوعا ما ، فى محيطه الخاص ، فتكون بينهم وبينه ــ على البعــد ــ بعض أسباب الألفة • ومن أجل توضيح ذلك أكتب هذه المقدمة :

ان السنة : دعوة بالحسنى الى الرقى الأخلاقى الذى تجرى وراءه الانسانية المهذبة ، انها دعوة إلى التاجر أن يكون صدوقا ، فيحشر مع النبيين والصديقين والشهداء •

والى العامل أن يتقن عمله ، لأن الله يحب اذا عمل أحــدكم عملا أن يتقنه •

والى الصانع أن يؤدى العمل كما يجب ، حيث أخــذ الأجر ، ومن أخذ الأجر حاسبه الله على العمل •

وهى دعــوة الى الأب ، باعتباره أبا ، والى الأم فى وضعهـا كأم ، والى الأخ فى مهمته كأخ، والى غيرهم من أفراد المجتمع :أن يرعى كل منهم ما وكل اليه من أمر رعيته لأنــه مسئول عن رعيته وكلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته •

وهى دعوة للناس الى الأمانة ، حيث أنه لا ايمان لمن لا أمانة لـــه .

والى الصدق ، وان الرجل ليصدق حتى يكتب عند الله صديقا والى الرحمة: ألرحمة العامة الشاملة ، وصلوات الله وسلامه على من قال :

«انما أنا رحمة مهداة » .

ومن قال : «ارحموا من فى الأرض يرحمكم من فى السماء» .

وخذ أى خلق كريم تتمنى أن يسير عليه المجتمع : فستجد فى السنة دعوة اليه ، بوسيلة وبأخرى ، وبثالثـــة .

وهى فى هذه الدعوة تتنبه دائما الى دور الأمة الاسلامية فى الأخلاق العالمية : أن دورها : انما هو دور الرائدة الراعية، وعلى الرائد دائما أن يكون المثل الأعلى . والأسوة الكريمة ، والقدوة الصالحـــة .

ولقد كان رسول الله ، صلى الله عليه وسلم : الصورة الحية الناطقة التى طبقت كمبادىء انسانية ممكنة ــ الخلق الذى رسمه اللــــه وأحبه للانسانية جمعاء ، والذى عبرت عنه السنة أجمـــل تعبير وأبلغـــه .

ومن أجــل هذا التقدير الــكريم للسنة الشريفة كان العلماء المستنيرون فى كل عصر : يجاهدون من أجلها ، ومن أجل مكارم الأخلاق التى تعبر عنها ، وكان هؤلاء العلماء ــ علماء السنة ــ

يعرفون بسيماهم : فقد كانوا من الزهد فى حطام الدنيا : بحيث لا ينازعون الناس فى دنياهم :

لقد كانوا مشغولين عن جمع المـــال بخدمة الدين ، وكانـــوا مشغولين عن الجـــاه بغرس الخلق الصالح الــكريم ، وكانـــوا مشغولين عن السلطان بمن بيده السلطان يؤتيه من يشاء وينزعه ممن يشاء : مالك الملك ذى الجلال والاكـــرام •

وكانوا صادقين ، لقد كان الصدق ديدنهم وفطرتهم •

وكانوا صابرين على الحياة ، وصابرين على العمل : لقـــد أقاموا نهارهم ، وأسهروا ليلهم عملا على مرضاة الله ورسوله صلى الله عليـــه وسلم •

والمثل الذى نحب أن نسوقه ــ كصورة لهؤلاء القوم ــ هو الامام أحمد بن حنبل ، رضى الله عنه ؛ انه المحدث الذى حاول أن يكون صورة صادقة لمـــا كان عليه الرسول ، صلى اللـــه عليه وسلم ، فى الزاوية الأخـــلاقية •

وسيرة الامام ، رضوان الله عليه : مثل أعلى فى التمسك بما يراه حقا ، وفى الصبر على ما يناله فى سبيل التمسك بالحـــق •

على أن كل من تشبع بالسنة حقا : انما هـــو صورة ، قريبة بقدر المستطاع ، من الامام أحمـــد •

ولقد كان الامام البخارى وغيره ممن أشربت نفوسهم حب السنة : أمثلة كريمة للخلق الكريم •

والأمثلة الكريمة للخلق الكريم هدف دائما لسهام النماذج الأثيمة التى استهواها الشيطان فى قليل أو فى كثير ، انه النزاع الدائم بين الفضيلة وأصحابها ، وبين الممثلين لنزعات الهوى والضلال •

ولولا وجود هذه المثل العليا لمكارم الأخلاق فى كل عصر لفقدت الانسانية الثقة بنفسها ، ولما اطمأن انسان لانسان ، ولما وثق شخص بآخر •

لقد ربت السنة رجالا ، وخصائصها التى ربت بها الرجال موجودة فيها ، لأنها من طبيعتها ومن ذاتها • ولقد شاهدت الانسانية واعترفت بسموهؤلاء الرجال، وأولتهم ثقتها وتقديرها •

ان الامام أحمد بن حنبل ، وان الامام البخارى ، وان أمير المؤمنين فى الحديث : الامام سفيان الثورى ، وأمثال هؤلاء،رضى الله عنهم : منارات يهتدى بهم عشاق المثل العليا الأخلاقية •

لا بد اذن من العمل على نشر السنة واذاعتها ، ومحاولة الاكثار من النفوس التى تتشربها وتحققها وتتمثلها وتحياها •

لا بد من نشرها وطنية •

ولا بد من نشرها انسانية ، لأنها تعبر عن أرقى مستوى انسانى •

ولا بد من نشرها دينا .

ولا بد من نشرها للثروة اللغوية .

ولا بد من نشرها للثروة اللغــوية . .

وما من شك فى أن للسنة جوا فكريا : فالرسول ، صلى اللـــه عليه وسلم : يتحدث عن اصلاح المجتمع ، وعن عوامل الهدم،التى تعمل على تقويضه ، وعن عوامل البناء التى تعمل على اقامته على قواعد سليمة ، ويتحدث عن النظم التى ينبغى أن تسود المجتمع الانسانى ، وعن الأوضاع التى يجب أن تستقيم .

وللسنة : جو لغوى : فالرسول ، صلى الله عليه وسلم قــد أوتى جوامع الكلم ، وكلامه ، صلى الله عليه وسلم : ابلغ الكلام البشرى ، ونشر السنة عامل من أهم العوامل على ترقية اللغة التى يكتب بها الكتاب ، وعلى وضع الناشئين والمثقفين فى وضع أدبى ممتاز ، من حيث اللغة ، ومن حيث الأسلوب .

وللسنة جو روحى: انها تهذيب للنفس، وتربية للروح، وسمو بالأخلاق الى درجة لا تجارى ، وصلى الله وسلم على من قال :

« انما بعثت لأتمم مــكارم الأخلاق » .

ورحم الله شوقى اذ يقول :

انما الأمم الأخـــلاق ما بقيت فان هموا ذهبت أخلاقهم ذهبوا

ومن أجل ذلك كلــه كان نشر السنة واجبا دينيا ، وعمــلا اجتماعيا كريما ، وواجبا وطنيا حتميا ، واصلاحا أخلاقيا ساميا .

وهو على كل حال ضرورة وطنية ملحة فى عصر تحاول الرذيلة فيه أن تعمم الانحلال الخلقى فى كل أسرة وفى كل بيت ، ويحاول الفساد أن يأتى على مقدسات الأمة ومقوماتها : من عرض وشرف وكرامــة .

لقد أحب الله للانسانية مثالا أخلاقيا كريما رسمه سبحانه فى القرآن الكريم قولا ، فكان الرسول صلى اللــه عليه وسلم الصورة التطبيقية الكاملة للرسم الالهى ، وكان بذلك الانسان الــكامل .

لقد كان المثل الأعلى فى الرحمة ، والمثل الأعلى فى الــكفاح والمثل الأعلى فى الصبر المجاهد المتفائل ، والمثل الأعلى فى الصدق فى الاخلاص ، فى الوفاء ، فى البر ، فى الــكرم .

ولقد وصفه الله سبحانه وتعالى بقولــه :

« وانــك لعلى خلــق عظيم » .

ولا ريب فى أن الأمة الاسلامية حينما تقتدى بالرسول صلى الله عليه وسلم : انما تقتدى بأعظم البشر رجولة وانسانية .

وتقتدى بمن أحب الله سبحانه أن تقتدى به :

« لقد كان لـــكم فى رسول الله أسوة حسنة ، لمن كان يرجو الله واليوم الآخر ، وذكر الله كثيرا » •

وان العمل على نشر السنة انما هو توجيه للاقتداء بالرسول صلى الله عليه وسلم •

والله أرجو : أن يجعله عام النفـــع •

وأن يهـــدى به •

وأن يجعله ذخيرة ، يوم لا ينفع مال ولا بنون الا من أتى الله بقلب سلـــيم •

الفصـــل الأول

الرسول صلى الله عليه وسلم وسنته الشريفة

بسم الله الرحمن الرحيم ، الحمد لله رب العالمين •

« ربنا آتنا من لدنـــك رحمة ، وهىء لنا من أمرنا رشدا » ،

« ربنـــا لا تزغ قلوبنا بعد اذ هـــديتنا ، وهب لنا من لدنك رحمة انك أنت الوهـــاب » •

خاتم الأنبيـــاء :

يقول الله تعالى لرسوله الـــكريم ، صلى الله عليه وسلم :

« وما أرسلناك الا كافة للناس بشـــيرا ونذيرا » وما كانت هذه الرسالة العامة لأحد من الرسل من قبله: فموسى عليه السلام أرســـل لبنى اسرائيل خاصة : لقـــد اقتصرت دعوته على بنى اسرائيل ، لدرجة أنه حينما ذهب هو وهارون ، عليهما السلام، الى فرعون قالا له: «انا رسولا ربك، فأرسل معنا بنى اسرائيل»

فموسى ذهب الى فرعون ليرسل معه بنى اسرائيل • ولم يكافح سيدنا موسى الشعوب ، أو الأمم فى سبيل دعوته •

وعيسى ، عليه الســـلام ، انما أرسل الى • • « خراف بنى اسرائيل الضالة » ، على حد تعبيرهم القديم ، ولم يحاول سيدنا

عيسى أن يبشر بدعوته خارج فلسطين ، ولم يحاول أن يجاهد من أجلهـــا ٠

أما رسول الله ، صلى الله عليه وسلم: فانه أرسل الى الناس جميعا : انه أرسل الى الناس جميعا من حيث المـــكان ، وأرسل اليهم جميعا من حيث الزمان ، فهو الرسول الدائم زمانا ومكانا:

« قل يا أيها الناس انى رسول الله اليـــكم جميعا » ٠

وقد تكفل الله تعالى بحفظ الكتاب الذى أنزله على رسوله ، صلى الله عليه وسلم ، ضمانا لهذا العموم فى الزمان وفى المكان وتحقيقا له : « انا نحن نزلنا الذكر وانا له لحافظون » ٠

ومن أجل هذا الوعد بحفظ الوحى كاملا غير منقوص، صحيحا غير مزيف ، كانت الحكمة الالهية فى أن الانسانية لا تحتاج الى رسول بعد الرسول ، ولا الى نبى بعد النبى ، انه ، صلوات الله وسلامه عليه : خاتم الرسل ، وخاتم الأنبيـــاء ٠

ولقد امتزج رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، برسالتـــه الخالدة ، فكان هو هى : شرحا وتفصيـــلا ٠

وكانت هى هو بيانا لمعدنه وجوهره ، وخلافة له،ونيابة عنه٠

تقول السيدة عائشة ، رضى اللـــه عنها : « لقـــد كان خلقه القرآن » وهذه الكلمة من السيدة عائشة ، رضوان الله عليها : تحتاج الى تحديد وبيان : ذلك أن القرآن : يحدد الخلق الكريم

فى حده الأدنى ، ثم لا يقتصر على ذلك ، وانما يرسم القمم من مكارم الأخلاق ، ويوجه الى السنام منها ، ويقود الى المشارف العليا من درجات المقربين .

فهل تريد السيدة عائشة ، رضوان الله عليها ، حينما تصفه، صلى الله عليه وسلم ، بأن خلقه القرآن : هل تريد الخلق الكريم فى حده الأدنى ، أم تريده فى حده الأوسط ، أم تريده فى حـــده الأسمى ؟

ان القرآن يحدد الدرجة التى وصل اليها الرسول ، صلى الله عليه وسلم : من الخلق القرآنى : فيقول ، سبحانه لرسول اللـــه صلى الله عليه وسلم : « وانك لعلى خلق عظيم » .

هذه الآية القرآنية الكريمة : تحدد درجة الأخلاق القرآنية التى وصل اليها الرسول ، صلى الله عليه وسلم ، أنها ذروتهـــا وسنامهـــا :

أول المسلمـــين :

ولقد قال صلوات الله وسلامه عليه :

« انما بعثت لأتمم مـــكارم الأخلاق » :

انه صلى الله عليه وسلم ، بعث ليتمم المـــكارم الأخلاقية : ليتممها بذاته : بسلوكه ، وليتممها بقوله : برسالته .

انه لم يبعث لينشر الأخلاق الـــكريمة فحسب ، وانما بعث ليتمم مـــكارمهـــا .

ومكارم الأخلاق : لم تــكن ــ قبل الرسول صلوات اللـــه وسلامه عليه ــ قد تمت : ان أول المسلمين لم يكن قد وجد بعد، وكانت بذلك مكارم الأخلاق ناقصة، كان ينقصها أكمل صفة لمكارم الأخلاق وهى اسلام الوجه لله اسلاما تاما ، ان الكائنات لم تكن قد وصلت ــ لا فى نبى مرسل ، ولا فى ملك مقرب ــ الى الذروة من اسلام الوجه للـــه •

والذروة من اسلام الوجه لله ، أو أول المسلمين—والتعبيران سواء ــ انما هو الذروة من مكارم الأخلاق •

انه الكائن الربانى : انه أول المسلمين ، أولهم باطلاق ، أولهم بالنسبة للملائكة، وأولهم بالنسبة لبنى آدم، وأولهم قديما، وأولهم الى الأبـــد • • • ان أول المسلمين : لم يكن قد وجد بعد •

وكانت الانسانية بذلك ناقصة ، وكانت الكائنات كلها بذلك ناقصـــة •

كان الكون ناقصا مادة ومعنى ، كان ينقصه أن تتعطر أرضه بأزكى الأجساد ، وأن يتعطر جوه بأزكى الأرواح ، وكان لا بـــد من وجود كائن بهذه المثابة يكمل الله به الدين ، ويتم به النعمة، ويرضى رسالته دينا عاما خالدا للانسانية جمعاء : هو اســـلام الوجه للـــه •

وينزل القرآن محددا اسلام الوجه للـــه وسائل ، ومحددا اسلام الوجه لله غايات، محددا اسلام الوجه لله طرقا وأساليب،

ومحددا له بواعث وأهدافا : ومن هنا كان من يبتغى غير الاسلام دينا لا يقبل منه ، يقول الله تعالى :

«ومن يبتغ غير الاسلام دينا فلن يقبل منه » •

وكيف يقبل منه ما يتنافى مع اسلام الوجه لله ؟

ان اسلام الوجه لله هو الذروة من مكارم الأخلاق ، وهو جوهر التدين ، انه الدين القيم ، انه الدين الخالد ، والنص الوحيد ، النص الالهى الفريد فى العالم كله الذى يبين كيفية اسلام الوجه لله ، انما هو القرآن ، واذا ما وصل الانسان الى اسلام الوجه لله كان بذلك فى ذروة الانسانية ، وفى الذروة من مكارم الأخلاق •

ويتفاوت الناس فى اسلام وجوههم لله ، ولا بد من أن يكون أحدهم أول المسلمين ، فكان رسول الله ، صلى الله عليه وسلم، أولهم باطلاق مطلق :

« قل ان صلاتى ونسكى ، ومحياى ، ومماتى ، لله رب العالمين ، لا شريك له ، وبذلك أمرت ، وأنا أول المسلمين »

ولم يصف القرآن بأول المسلمين شخصا آخر غير الرسول صلى الله عليه وسلم •

ومكارم الأخلاق لا يحدها — من حيث التبشير بها — مكان، ولا يحدها زمان ، بل ولا يحدها عالم من عوالم الله فى الأرض

أو فى السماء ، ومن أجل ذلك كانت رسالته ، صلوات اللـــه عليه وسلامه ، رحمة للعالمـــين ٠

من مكانة الرسول صلى الله عليه وسلم عند ربه :

ورسول الله ، صلى الله عليه وسلم ــ لأنه يمثل الأخـــلاق القرآنية فى ذروتها وسنامها ــ جعل الله ، سبحانه وتعالى ، له مكانة خاصة بين المسلمين ، فهو صلوات الله وسلامه عليه ــ لأنه تمثل القرآن وحققه ، وأصبح قرآنا ــ أصبح بذلك يمثل الحق بقوله ، ويمثل الحق بعمله ، فلا ينطق عن الهـــوى ، ولا يعمـــل بالهوى ٠

يقول الله ، تبارك وتعالى له ، معبرا عن هذه الحقيقة أروع تعبـــير :

« وانك لتهدى الى صراط مستقيم ، صراط الله ٠٠٠» ٠

ويقول تعالى لرسوله ، صلى الله عليه وسلم :

«قل: انني هداني ربى الى صراط مستقيم ، دينا قيما٠٠٠»

بل ان طريق الدعوة نفســـه ، كان ، صلوات الله وســـلامه عليه ، يسير فيه معصوما ، وكل من يسير فى الدعوة على نسقه ، انما يسير معصوما بعصمة الرسول ، صلى الله عليه وسلم، التى منحها الله تعالى اياه :

«قل:هذه سبيلى أدعو الى الله على بصيرة أنا ومن اتبعنى»

ودعوته اذن وطريق دعوته : يسير فيهما على هدى ، وعلى نور من ربه ، ولذلك فان : « من يطع الرسول ، فقد أطاع الله» .
فيقول سبحانه :

ويعمم الله ، سبحانه ، الحكم تعميما ، ويطلقه اطلاقا ، فيقول سبحانه :

« وما آتاكم الرسول فخذوه ، وما نهاكم عنه فانتهوا » .

ويقول تعالى : « وان تطيعوه تهتدوا » .

واتباع الرسول ، صلى الله عليه وسلم ، علامة على محبة الله تعالى لمن يتبعه وسبب فى حبه تعالى له .

« قل : ان كنتم تحبون الله فاتبعونى يحببكم الله .. » .

ان حب العبد لله لايفيد ما لم يتخذ العبد الوسيلة الناجعة لذلك ، وهذه الوسيلة هى : اتباع رسول الله ، صلى الله عليه وسلم .

ولقد قال الله ، سبحانه وتعالى : فى حديث قدسى ، رواه الامام البخارى: «من عادى لى وليا فقد آذنته بالحرب، ومايزال عبدى يتقرب الى بالنوافل حتى أحبه ، فاذا أحببته كنت سمعه الذى يسمع به ، وبصره الذى يبصر به ، ويده التى يبطش بها، ورجله التى يمشى بها ، وان سألنى أعطيته ، ولئن استعاذنى لأعيذنه » .

وهذه النوافل التى ذكرت فى الحديث الشريف ، والتى اذا

أكثر الانسان منها : بعد أداء الفرائض ، أحبه الله : انمـــا هى سلوك رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، انها طريق رســـمه، صلوات الله عليه وسلامه بقوله ، وبعمله، انها سننه ، صلوات الله وسلامه عليه، التى سنها ، لينال الانسان بها محبة الله، سبحانه.

من مكانة رسول الله صلى الله عليه وسلم عند ربه أيضا :

وأحب الله ، سبحانه ، رسوله ، صلى الله عليه وسلم ، وكان هذا الرسول بعبوديته لله سبحانه ، حبيب الله ، وبلغ الرسول، صلوات الله عليه وسلامه ، بعبوديته التامة درجة أول المسلمين، كما سبق أن ذكرنا .

ولما كان أول المسلمين ، وكان حبيب الله ، ونبيه ، ورسوله: ميزه الله ، سبحانه وتعالى ، على بقية البشر بكونه خيرهم، وهذا التمييز لايخرجه ، صلوات الله عليه وسلامه عن البشرية : فهو بشر ، وهو خير البشر . ومنتهى القول فيه أنه بشر — وأنه خير خلق الله كلهم ، ولأنه خير البشر : يقول الله تعـــالى مخـــاطبا المؤمنين : «لاتجعلوا دعاء الرسول بينكم كدعاء بعضكم بعضا».

ان الانسان الذى خصه اللـــه بالوحى ، واجتباه لرسالته، واصطفاه ليكون — باسمه ، سبحانه — بشيرا ونذيرا ، ان هـــذا الانسان الذى فضله الله على العالمين : يجب أن نعرف له مكانته وننزله فى الشرف الذى أنزله الله فيه ، ان هـــذا السراج المنير، ان هذا الرءوف الرحيم : ينبغى ألا يدعى كما يدعى زيد وعمرو،

« بمعنى لا تنادوه باسمه : فتقولوا ، يا محمد ، أو بكنيته فتقولوا : يا أبا القاسم ، بل نادوه وخاطبوه بالتعظيم ، والتكريم والتوقير بأن تقولوا : يارسول الله،يا نبى الله،يا امام المرسلين، يا رسول رب العالمين ، يا خاتم النبيين ، وغير ذلك ..

واستفيد من هذه الآية كما يقول الشيخ الصاوى فى حاشيته على تفسير الجلالين — أنه لا يجوز نداء النبى بغير ما يفيد التعظيم ، لا فى حياته ، ولا بعد وفاته ، فبهذا يعلم أن من استخف بجنابه صلى الله عليه وسلم : فهو كافر ملعون فى الدنيا والآخرة » أ هـ .

ويقول الله سبحانه فى أوائل سورة الحجرات : « يا أيها الذين آمنوا لا تقدموا بين يدى الله ورسوله »أى لا تتقدموا بأمر من الأمور ، قولا كان أو فعلا ، الا اذا أذن الله ورسوله ،وكل أمر قولا كان أو فعلا : أتاه الانسان بدون اذن الله ورسوله: فانه لا يقع على السنن المستقيم .

يقول الضحاك عن ذلك : هو عام فى القتال وشرائع الدين، أى لا تقطعوا أمرا دون الله ورسوله « واتقوا الله ، ان الله سميع عليم » .

« يا أيها الذين آمنوا لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبى، ولا تجهروا له بالقول كجهر بعضكم لبعض » .

واحـــذروا ان فعلتم ذلك : « أن تحبط أعمالــكم وأنتم لا تشعرون » •

«ان الذين يغضون أصواتهم عند رسول الله ، أولئك الذين امتحن الله قلوبهم للتقوى ، لهم مغفرة وأجر عظيم » •

أما هؤلاء الذين أساءوا الأدب دون أن يقصدوا فأخـــذوا ينادونك من وراء الحجرات مناداة الأعراب الأجلاف،فان عقولهم — فى الأغلب الأعـــم — ناقصة : « ان الذين ينادونك من وراء الحجرات أكثرهم لا يعقلون . ولو أنهم صبروا حتى تخرج اليهم لكان خيرا لهم والله غفور رحيم » •

على أن مجرد الرغبة فى الحديث ، الى رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، يحتاج تنفيذها الى تقديم صدقة ، يقول الله تعالى فى سورة المجادلة :

«يا أيها الذين آمنوا اذا ناجيتم الرسول فقدموا بين يدى نجواكم صدقة ، ذلك خير لكم ، وأطهر ، فان لم تجدوا فان الله غفور رحـــيم » •

وتدل الآية الـــكريمة على أن ترك تقديم الصدقة اثم ، لأن من لم يجد الصدقة فان موقف الله سبحانه منه ، لعدم قدرته — المغفرة والرحمـــة ولا تـــكون المغفرة والرحمة الا على اثم أتاه الانسان •

وعدم توفر الاستطاعة سبب فى مغفرة الله سبحانه :«أأشفقتم أن تقدموا بين يدى نجواكم صدقات » •

واذا حملكم خوف الفقر على ألا تفعلوا ، واذا قادكم الضعف الانسانى الى ألا تنفذوا ذلك ، ثم ندمتم واستغفرتم ، فتداركوه حتى يتوب الله عليكم ، وأثبتوا حسن نيتكم ، وصفاء سريرتكم، بأن تقيموا الصلاة على الوجه الأكمل ، وتؤتوا الزكاة طيبة بها نفوسكم ، وتطيعوا الله ورسوله فى الصغير والكبير ، وما من ريب فى أن الله ، سبحانه : خبير بكل ما تعملون .

يقول تعالى : « أأشفقتم أن تقدموا بين يدى نجواكم صدقات ، فاذ لم تفعلوا ، وتاب الله عليكم فأقيموا الصلاة ،وآتوا الزكاة ، وأطيعوا الله ورسوله ، والله خبير بما تعملون » .

وبعد : فيقول رسول الله ، صلى الله عليه وسلم : « أنا سيد ولد آدم ولا فخر » .

ويقول الله تعالى :

«يا أيها النبى انا أرسلناك شاهدا ، ومبشرا ، ونذيرا .وداعيا الى الله باذنه وسراجا منيرا . وبشر المؤمنين بأن لهم من الله فضلا كبيرا » .

هذا جانب من مكانة الرسول صلى الله عليه وسلم التى أحبها الله له ، والتى نبه عليها سبحانه فى كتابه العزيز .

وجانب آخر أحبه الله تعالى لرسوله نريد أن نبينه : وهو أن الله ، سبحانه وتعالى ، قد فرض طاعة رسوله ، صلى الله عليه

وسلم ، مقرونة بطاعتــه ، بل لقد ذكرها اللــه سبحانه وتعالى وحدها ، باعتبارها فرضا •

يقول الله تعالى : « وما كان لمؤمن ولا مؤمنة اذا قضى الله ورسوله أمرا أن يكون لهم الخيرة من أمرهم ، ومن يعص اللــه ورسوله ، فقد ضل ضلالا مبينــا » •

ويقول تعالى : « يا أيها الذين آمنوا استجيبوا لله وللرسول اذا دعاكم لمــا يحييــكم » •

ويقول سبحانه : « قل أطيعوا الله وأطيعوا الرسول ، فان تولوا ، فان الله لا يحب الــكافرين » •

وفى هذه الآية الكريمة اشارة الى أن الاعراض عن طاعة الله أو عن طاعة الرسول : كفــر • وما من شك فى أنه كفر ، ذلك أن الايمان من أركانه : الايمان برسول الله ، صلى الله عليه وسلم، وبأن كل ما أتى بل صدق ، فالتولى عنه ، استخفافا ، أو جحودا وانكارا ، أو عنادا ومماراة • ذلك كله : كفر يخرج به المعرض عن دائرة الاسلام •

يقول الله تعالى فى طاعة الرسول ، صلوات الله وسلامــه عليه ، حينما يفرده بالحديث :

«فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ، ثم لا يجدوا فى أنفسهم حرجا مما قضيت ويسلموا تسليمــا » •

ويقول تعالى:«فليحذر الذين يخالفون عن أمره أن تصيبهم فتنة ، أو يصيبهم عذاب أليم » •

ويجعل سبحانه وتعالى ، طاعة الرسول صلى الله عليه وسلم طاعته فيقول سبحانه :

« من يطـع الرسول فقـد أطـاع اللـه » •

ويجعل بيعته صلوات الله وسلامه عليه بيعة للـه ، فيقول سبحـانه :

« ان الذين يبايعونك انما يبايعون الله ، يد الله فوق أيديهم، فمن نكث فانما ينكث على نفسه ، ومن أوفى بما عاهـد عليه الله فسيؤتيه أجرا عظيما » •

وطاعة رسول الله صلى الله عليه وسلم انما هى فيما افترضه الله سبحانه أو سنه ، وفيما افترضه رسوله صلوات الله وسلامه عليه أو سنه •

وقد تابع الرسول ، صلى الله عليه وسلم ، القرآن الكريم فى بيانه لمنزلة السنة • ووجوب اتباعه ، صلى اللـه عليه وسلم، فيما سنه ، فلقد حث رسول الله ، صلى اللـه عليه وسلم ، على تبليغ السنة ونشرها ، فقال : ــ فيما رواه أبو داود والترمذى عن زيد بن ثابت : « نضر الله وجه امرىء سمع مقالتى فحفظها ووعاها ، فأداها كما سمعها ، فرب مبلغ أوعى من سامع » •

وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يأمر الصحابة أن يبلغ الشاهد منهم الغائب فيقول فيما رواه أبو بكر : « ألا فليبلغ الشاهد منكم الغائب » .

ولقد روى الحاكم والبيهقى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال :

« تركت فيكم أمرين لن تضلوا ما تمسكتم بهما : كتاب الله، وسنتى » .

ويقول رسول الله ، صلى الله عليه وسلم فى خطبة الوداع:

« ان الشيطان قد يئس أن يعبد بأرضكم ، ولكن رضى أن يطاع فيما سوى ذلك مما تحقرون من أعمالكم فاحذروا ، انى تركت فيكم ما أن اعتصمتم به لن تضلوا أبدا: كتاب الله وسنتى»

ويبين رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فيما رواه البخارى عن أبى هريرة أن المسلمين سيدخلون الجنة الا من لا يرغب منهم فى ذلك .

يقول صلى الله عليه وسلم : « كل أمتى يدخل الجنة الا من أبى » قالوا : يا رسول الله ومن يأبى ؟ . قال : « من أطاعنى دخل الجنة ، ومن عصانى فقد أبى » .

مكـانة السنـــة من القــرآن

وسنة رســول الله ، صلى الله عليه وســلم : لها مكانتهــا بالنسبة الى القرآن ، ولها مكانتها بالنسبة الى التشريــع •

انها المصدر الثانى ـــ بعد القرآن ـــ للاسلام ، انها المصدر الثانى للاسلام باعتباره عقيدة ، والمصدر الثانى للاسلام باعتباره تشريعا ، والمصدر الثانى للاسلام باعتباره أخــلاقا •

أما منزلتها بالنسبة الى القرآن فانها ، حسبما يقول الامام الشافعى : « وسنن رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، مع كتاب الله وجهــان :

أحدهما : نص كتاب ، فاتبعه رسول الله كما أنزل الله •

والآخر : جملة ، بين رسول الله فيها عن الله معنى ما أراده بالجملة ، وأوضح كيف فرضها عاما ، أو خاصا ، وكيف أراد أن يأتى به العباد • وكلاهما اتبع فيه كتاب الله •

وفى كلمة أخرى يبين الامام الشــافعى الوجهين فيقــول : « أحدهما ما أنزل الله فيه نص كتاب ، فبين رسول الله مثل ما نص الكتاب • والآخر : مما أنزل الله فيه جملة كتاب ، فبــين رسول الله معنى ما أراد » وهذان الوجهان لم يختلف فيهما أحد من الفقهاء ولا من المحدثين ، يقول الامام الشافعى « وهــذان الوجهان اللذان لم يختلف فيهما » •

والوجه الأول بين بنفسه :

انه من الواضح أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يبين القرآن عقيدة ، وشريعة وأخلاقا على وجوه شتى ، وعلى أنحاء مختلفة ، وعلى أساليب تختلف فى الايجاز والاسهاب ، بحسب حالة المخاطب ، يقول الله تعالى :

« وأنزلنا اليك الذكر لتبين للناس ما نزل اليهم » .

والرسول صلى الله عليه وسلم كان يبين للناس ما نزل اليهم بسلوكه،وبقوله ، وباقراراته ، يقول ، صلوات الله عليه وسلامه: «ما تركت شيئا مما أمركم الله به الا وقد أمرتكم به ، ولا تركت شيئا مما نهاكم الله عنه الا وقد نهيتكم عنه » .

ولكن بيان رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، كان يشتمل أيضا على بيان ما أجمل فى كتاب الله،وهذا الوجه كثير فى السنة.

يقول الامام الشافعى ،رضى الله عنه: قال تبارك وتعالى :

« ان الصلاة كانت على المؤمنين كتابا موقوتا » .

وقال : « وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة » .

وقال : « وأتموا الحج ، والعمرة لله » .

ثم بين على لسان رسوله عدد ما فرض من الصلوات ومواقيتها ، وسننها ، وعدد ركعاتها ، والزكاة ومواقيتها ، وكيف

عمل الحج ، والعمرة وحيث يزول هذا ويثبت ، وتختلف سننه وتتفق ، ولهذا أشباه كثيرة فى القرآن والسنة » أ هـ •

وقد كان رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، يبين كيفية الصلاة بقوله وعمله ، كان يبين أوقاتها ، وأركانها ، وعدد ركعاتها، وافتتاحها وترتيب حركتها بعد الافتتاح ويقول صلى الله عليه وسلم : « صلوا كما رأيتمونى أصلى » •

ويبين رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، مناسك الحج : أركانه ، وواجباته ، وسننه ، ويقول : « خذوا عنى مناسككم » •

وفرض الله ، سبحانه وتعالى ، الزكاة ، ولم يبين مقادير لها ولم يذكر بالتفصيل الزروع ، والثمار ، والأموال التى تجب فيها الزكاة • فبين رسول الله صلى الله عليه وسلم ذلك كله وطبقه •

وقد بينت السنة أن القاتل لا يرث ، وأن الوصية لا تكون فى أكثر من الثلث ، وأن الدين يقدم على الوصية ، هذا وكثير غيره مما بينته السنة •

عن عمران بن حصين ، رضى الله عنه : أنه قال لرجل يريد أن يقتصر على القرآن دون السنة : انك امرؤ أحمق ، أتجد فى كتاب الله الظهر أربعا لا يجهر فيها بالقراءة ، ثم عدد عليه الصلاة والزكاة ونحو هذا • ثم قال : أتجد ذلك فى كتاب الله مفسرا ؟ ان كتاب الله أبهم هذا ، قال والسنة تفسر ذلك •

ولقد قيل لمطرف بن عبد اللـــه بن الشخـــير : لا تحدثونا الا بالقرآن •

فقال : والله ما نبغى بالقرآن بدلا ، ولكن نريد من هو أعلـــم منا بالقـــرآن •

ويقول الامام الشافعى رضى الله عنه : « ومن قبل عن رسول الله ، فعن الله قبل ، لما افترض الله من طاعته » •

مـــكانة السنة من التشريـــع :

ورسول الله ، صلى الله عليه وسلم : يشرع — عن الله تعالى — فيما لا نص فيه من كتاب اللـــه •

روى الامام أحمـــد ، وأبو داود ، والترمذى وغيرهم : أن رسول الله ، صلى اللـــه عليه وسلم ، بعث معاذ بن جبل ، رضى الله عنه ، الى اليمن فقال :

« كيف تقضى اذا عرض لك قضـــاء ؟ » •

قال : أقضى بكتاب الله •

قال « فان لم يكن فى كتاب الله ؟ »

قال : فبسنـــة رسول الله •

قال : « فان لم يـــكن فى سنة رسول اللـــه ؟ »

قال : أجتهـــد رأيى ولا آلـــو •

فضرب رسول الله صلى الله عليه وسلم على صدره وقال:
«الحمد لله الذىوفق رسول رسول اللهلما يرضى رسول الله»

وسيدنا عمـــر بن الخطاب ، رضى اللـــه عنه فى رسالته فى القضـــاء الى أبـــى موسى الأشعرى ، رضى اللـــه عنه والتـــى بدأها بقوله : « سلام عليك ، أما بعد فان القضاء فريضة محكمة، وسنة متبعة » .

يقول سيدنا عمر فى هذه الرسالة :«الفهم الفهم فيما تلجلج فى صدرك مما ليس فى كتاب ولا سنة » .

فجعل سيدنا عمر السنة مصدرا من مصادر التشريع .

ولقد سئل سيدنا أبو بكر ، رضى انله عنه ، عن ميراث الجدة فقـــال : « مالك فى كتاب اللـــه من شىء ولـــكن أسأل الناس »، فسألهم ، فقام المغيرة بن شعبة ، ومحمـــد بن مسلمة ، فشهدا : أن النبى ، صلى الله عليه وسلم ، أعطاها السدس .

ولم يكن سيدنا عمر بن الخطاب ، رضى الله عنه يعلم سنـــة الاستئذان حتى أخبره بها أبو موسى رضى الله عنه (١) .

ولم يكن يعلم أن المرأة ترث من دية زوجها حتى كتب اليـــه الضحاك بن سفيان ، أمير رسول الله ، صلى اللـــه عليه وسلم،

---

١) فبين له أن الاستئذان ثلاث ، فاذا لم يؤذن له انصرف .

على بعض البوادى يخبره أن رسول الله ، صلى الله عليه وسلم:
« ورث امرأة أشيم الضبابى من دية زوجها »

ولم يكن يعلم حكم المجوس فى الجزية حتى أخبره عبد الرحمن بن عوف : أن رسول الله ، صلى الله عليه وسلم قال : سنوا بهم سنة أهل الكتاب » .

ولما قدم « سرغ » وبلغه أن الطاعون بالشام ، استشار المهاجرين الأولين الذين معه ، ثم الأنصار ، ثم مسلمة الفتح، فشار كل عليه بما رأى ، ولم يخبره أحد بسنة ، حتى قدم عبد الرحمن بن عوف ، فأخبره بسنة ، رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، فى الطاعون ، وأنه قال : « اذا وقع بأرض وأنتم بها فلا تخرجوا فرارا منه،واذا سمعتم به بأرض فلا تقدموا عليه» .

وهذا عثمان ، رضى الله عنه ، لم يكن عنده علم بأن المتوفى عنها زوجها تعتد فى بيت زوجها ، حتى حدثته الفريعة بنت مالك، أخت أبى سعيد الخدرى بقضيتها لما توفى زوجها ، وأن النبى، صلى الله عليه وسلم ، قال لها :

« امكثى فى بيتك حتى يبلغ الكتاب أجله » فأخذ به عثمان .

ولقد روى الحاكم ما يلى :

« حرم رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، أشياء يوم خيبر منها الحمار الأهلى ، وغيره » .

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « يوشك أن يقعد الرجل منكم على أريكته ، فيحدث بحديثى ، فيقول : بينى وبينكم كتاب الله،فما وجدنا فيه حلالا استحللناه،وما وجدنا فيه حراما حرمناه . وان ما حرم رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، كما حرم الله » .

ويقول رسول الله،صلى الله عليه وسلم،فيما رواه أبو داود عن عبيد الله بن أبى رافع عن أبيه : « لا ألفين أحدكم متكئا على أريكته يأتيه الأمر من أمرى ، مما أمرت به ، أو نهيت عنه فيقول: لا أدرى ، ما وجدنا فى كتاب الله اتبعناه » .

روى أبو داود والترمذى وابن ماجه عن المقدام بن معد يكرب قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ألا انى أوتيت القرآن ومثله معه ، ألا يوشك رجل شبعان على أريكته يقول : عليكم بهذا القرآن فما وجدتم فيه من حلال فأحلوه ، وما وجدتم فيه من حرام فحرموه ، ألا وان ما حرم رسول الله صلى الله عليه وسلم كما حرم الله » .

وعن حسان بن عطية أنه قال : « كان جبريل ، عليه السلام، ينزل على رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، بالسنة كما ينزل عليه بالقرآن ، ويعلمه اياها كما يعلمه القرآن » .

وعن مكحول قال : قال رسول الله ، صلى الله عليه وسلم « آتاكم الله القرآن ومن الحكمة مثليه »أخرجهما أبو داود فى مراسيله •

وقيل لمطرف بن عبد الله بن الشخير : لا تحدثونا الا بالقرآن — فقال ، والله ما نبغى بالقرآن بدلا ، ولكن نريد من هو أعلم منا بالقرآن •

وقال عبد الله بن مسعود رضى الله عنه:«لعن الله الواشمات والمستوشمات ، والمتنمصات والمتفلجات للحسن المغيرات خلق الله » ، فبلغ ذلك امرأة من بنى أسد ، فقالت : يا أبا عبد الرحمن بلغنى أنك لعنت كيت ، وكيت فقال « ومالى لا ألعن من لعنه رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو فى كتاب الله»فقالت المرأة: لقد قرأت ما بين لوحى المصحف فما وجدته ، فقال لئن كنت قرأته فقد وجدته • أما قرأت : « وما آتاكم الرسول فخذوه ، وما نهاكم عنه فانتهوا » ؟ قالت : بلى • قال : فانه قد نهى عنه رسول الله، صلى الله عليه وسلم •

وبعد أن يذكر الامام الشافعى الوجوه الثلاثة : —

١ — بيان السنة للكتاب على ما فى الكتاب •

٢ — بيان السنة لمجمل الكتاب •

٣ — ما بين رسول الله فيما ليس فيه نص كتاب .

يقول : وذلك ما نريد أن ننتهى اليه ، وهو بين فى وضوح من كل ما ذكرنا — وأى هذا كان ، فقد بين الله أنه فرض فيه طاعة رسوله ، ولم يجعل لأحد من خلقه عذرا بخلاف أمر عرفه من أمر رسول الله ، وأن قد جعل الله بالناس كلهم الحاجة اليه فى دينهم، وأقام عليهم حجته بما دلهم عليه من سنن رسول الله معانى ما أراد الله بفرائضه فى كتابه ، ليعلم من عرف منها ما وصفنا : أن سنته ، صلى الله عليه وسلم ، اذ كانت سنة مبينة عن الله معنى ما أراد من مفروضه فيما فيه كتاب يتلونه ، وفيما ليس فيه نص كتاب آخر : — فهى كذلك أين كانت ، لا يختلف حكم الله ثم حكم رسوله ، بل هو لازم بكل حال .

الفصــل الثانى
تــدوين السنة

بدأ رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، فى العهد المكى يبشر بالقرآن الكريم ، ورسالة التوحيد سرا ثم جهرا ، وكان الرسول، صلى الله عليه وسلم • يلقى بالأضواء كلها على القرآن :

١ ــ ذلك أن القرآن كلام اللــه ، سبحانه وتعالى ؛ وهــو بأسلوبه معجز ، وهو بمعناه يأخذ بالأفئدة ، وهو بعظاته يملك القلوب ، وهو بمنطقه يسيطر على العقول •

٢ ــ ثم ان موضوع القرآن فى هذه الفترة كان موضــوعا محددا : لقد كان جملة من القضايا تتصل بالغيب ، الغيب الالهى، أو ــ بتعبير آخر ــ توضح العقيــدة •

توحيدا ، ورسالة ، وبعثــا •

وكان أسلوب القرآن فى ذلك واضحا لا لبس فيه ؛ بينا بيانا سافــرا •

٣ ــ وخشى رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، أن يضيف بعض الناس شيئا من كلامه الى القرآن ويخلطوه به ، وربمــا أسرفوا فى هذه الاضافة : فلا يستبين الناس الفواصل والفروق

بين الأسلوب القرآنى الالهى، والأسلوب النبوى، حينما يتلونهما، فى أول العهد بالاسلام ، ممتزجين ، لا تمييز بينهمـــا .

ان معالم الأسلوب القرآنى واضحة ، وكلام الله ، سبحانه، أينما كان يتميز بصفات تجعله يسمو بمعزل من غيره .

ولكن لا بد من ايجاد الفرصة الكافية لترتسم هذه المعالم فى النفوس : أى لا بد من تقديم القرآن خالصا صافيا ، لا يمتزج به غيره .

لا بد من تقديمه كما أنزل فى ثوبه الالهى البحت حتى تصبح المعالم : معالم الاعجاز المعجز ، بينة سافرة .

من أجل ذلك نهى رسول الله ، صلى اللـــه عليه وسلم ، عن كتابة حديثه ، صلوات الله وسلامه عليه .

٤ ـــ على أن هذه الآيات القرآنية ، فى العهد المكى ، وهـــى تشرح التوحيد : توحيد الله فى الذات ، وتوحيد الله فى الصفات، انها وهى تشرح الهيمنة الالهية على الكون ، على العوالم : جميع العوالم ، ليست : فى حاجة الى بيان أوضح ، أو الى تعبير أقوى.

بل انه لا يتأتى أن يكون هناك بيان أوضح أو تعبير أقوى .

انها وهى تهدم الشرك ، وتدك حصونه ، فتقول مثلا :«قل: الحمد لله وسلام على عباده الذين اصطفى الله خير أما يشركون؟ أمن خلق السموات والأرض وأنزل لكم من السماء ماء فأنبتنا به

حدائق ذات بهجة ما كان لكم أن تنبتوا شجرها ، أ الهمع اللـــه ؟ بل هم قوم يعدلون •

أمن جعل الأرض قرارا ، وجعل خلالها أنهارا ، وجعل لهـــا رواسى وجعل بين البحرين حاجزا ، أ اله مع الله ؟ ، بل أكثرهم لا يعلمـــون •

أمن يجيب المضطـــر اذا دعاه ، ويكشف السوء ، ويجعلـــكم خلفاء الأرض ، أ اله مع الله ؟ ، قليلا ما تذكرون •

أمن يهديـــكم فى ظلمات البر والبحـــر ، ومن يرسل الرياح بشرا بين يدى رحمته ، أ اله مع الله ؟ تعالى الله عما يشركون •

أمن يبدؤ الخلق ثم يعيده ، ومن يرزقكم من السماء والأرض، أ اله ، مع اللـــه ؟ !

قل : هاتوا برهانكم ان كنتم صادقين » •

انها ، حينما تقول ذلك ، لا تحتاج الى شرح أو تفسير •

وهى ، حينما تتحدث عن البعث فتقول : « ونفخ فى الصور، فصعق من فى السموات ومن فى الأرض الا من شاء الله ،ثم نفخ فيه أخرى ، فاذا هم قيام ينظرون ، وأشرقت الأرض بنور ربها، ووضع الكتاب ، وجىء بالنبيين والشهداء وقضى بينهم بالحـــق وهم لايظلمون ، ووفيت كل نفس ماعملت وهو أعلم بما يفعلون»

ليست بحاجة الى شرح أو تفسير .

وهى : حينما تتحدث عن الرسول صلى الله عليه وسلم ، ونزول القرآن عليه فتقول :

« نزل به الروح الأمين،على قلبك لتكون من المنذرين ، بلسان عربى مبين » ليست بحاجة الى شرح أو تفسير .

ثم هى ، حينما تقول ترغيبا وتبشيرا :

ان أصحاب الجنة اليوم فى شغل فاكهون .

هم وأزواجهم فى ظلال على الأرائك متكئون .

لهم فيها فاكهة ولهم ما يدعون .

سلام قولا من رب رحيم » .

ليست بحاجة الى شرح أو تفسير .

وحينما تقول موعظة وانذارا :

« ويوم يحشر أعداء الله الى النار فهم يوزعون .

حتى اذا ما جاءوها شهد عليهم سمعهم وأبصارهم وجلودهم بما كانوا يعملون .

وقالوا لجلودهم : لم شهدتم علينا ؟ قالوا : أنطقنا الله الذى أنطق كل شىء ، وهو خلقكم أول مرة واليه ترجعون .

وما كنتم تستترون أن يشهد عليكم سمعكم ولا أبصاركم ولا جلودكم ولكن ظننتم : أن الله لا يعلم كثيرا مما تعملون .

وذلـــكم ظنـــكم الذى ظننتم بربكم أرداكم فأصبحـــتم من الخاسرين ، فان يصبروا فالنار مثوى لهم ، وان يستعتبوا فمــا هم من المعتبين » ليست بحاجة الى شرح أو تفسير •

٥ ـ ثم ان الموضوعات التى تتحدث فيها هذه الآيات المكية: موضوعات غيبية ، والموضوعات الغيبية دقيقة وغاية فى الدقــة، فهل اذا تحدث الرسول صلى الله عليه وسلم•فى هذه الموضوعات ونقل عنه هؤلاء شفهيا ــ وهم حديثو عهد بالاســـلام وقريبو عهد بالجــاهلية الوثنية • • • هل سيحسنون التعبـــير عنها أو سيقولونها كما تحدث بها الرسول صلى الله عليه وسلم ، دقته الدقيقة ، وفهمه الواعى عن الله ، سبحانه وتعالـــى ؟

من أجل كل ذلك ، أمر رسول الله ، صلى اللـــه عليه وسلم ألا يكتب عنه غير القــرآن •

وحكمة هذا الأمر وتعليله : واضح كل الوضوح مما ذكرنا •

ولكن فى فترة العهد المدنى تغير الوضع :

هاهو ذا الاسلام ينتشر انتشارا واسعا وسريعا: وهاهى ذى الأمة الاسلامية الناشئة المؤمنة القوية : تبعث الأمل واسعــا فى أن دين الله سينتشر فى الآفاق ، وسيعم نوره الأقطار ، وستحطم كلمة الحق ، صروح الباطل ، وسيتم الله نوره ولو كره المشركون، وسيعم لألاؤه رغم أنـــوف الكافرين •

ومن أجل هذه الأمـــة بدأ الوحى ينزل أرســـالا ، أرســـالا بالتشريع فى جميع ألوانه: تشريع دولى ، وتشريع جنائى، وتشريع مدنى ، وتشريع للعبادة ، وتشريع للأحوال الشخصية •

لقد بدأ التشريع الالهى ينظم حياة الفرد : عبادة ومعاملة : حياته مع نفسه ، وحياته مع أمته وحياته مع الله تعالـــى •

لقد أخذ ينظم حياة الانسان منذ أن يستيقظ فى الصباح الى أن ينتهى به الأمر الى الصحو من جديد فى صباح تال •

وينظم حياته من أسبوع الى أسبوع ، ومن شهر الى شهــر ومن عام الى عـــام •

وينظم حياته فى ذاته ، وينظم حياته فى أسرته ، وينظم حياته فى مجتمعـــه •

وينظم حياة المجتمع الاسلامى كله فى الكون كله •

وما كان يتأتى أن يتعرض الوحى فى ذلك للتفصيلات المفصلة، ولا للجزئيات الجزئية التى لا تحد ولا تحصى ، ولكنه كان يفصل تفصيلا يشبه أن يكون تاما فى الأمور التى تكون عادة مثار النزاع، وخصوصا الماليات : كالميراث ، وكتابة الدين مثـــلا •

ويضع قواعد عامة شاملـــة تتضمن الجزئيات المتعددة ، فى موضوعات أخرى وكان لا بد من أن يستفيض الرسول صلى الله عليه وسلم فى البيان والشرح والتفسير •

وكان المسلمون قد ألفوا الجو الاسلامى ، وألفوا الأسلوب القرآنى ، عرفوا مفهوم الشرك ومفهوم التوحيد ، وتبينت لهم الفروق الفاصلة بين العلم والجهل ، وبين الاسلام والجاهلية، وبين توجيه الوجه للذى فطر السموات والأرض ، وتوجيهه للأصنام أو الشهوات أو اللهو ، ولم يكن هناك من خوف على خلط أسلوب القرآن الكريم بغيره •

وكان لا بد من تقييد شروح الرسول ، صلى الله عليه وسلم، وتفسيراته • لم تكن هناك ظروف توجب عدم كتابة الحديث، وكانت هناك ظروف توجب كتابته •

ومن أجل ذلك أباح الرسول ، صلى الله عليه وسلم ، كتابته بعد أن كان قد نهى عنها •

وبدأ الصحابة ، رضوان الله عليهم ، يكتبون •

روى الامام البخارى ، فى كتاب العلم ، باب كتابة العلم قال :

حدثنا محمد بن سلام، قال : أخبرنا وكيع عن سفيان عن مطرف عن الشعبى ، عن أبى جحيفة ، قال : قلت لعلى : هل عندكم كتاب ؟

قال : لا ، الا كتاب الله ، أو فهم أعطيه رجل مسلم،أو ما فى هذه الصحيفة •

قلت : فما فى هذه الصحيفة ؟

قال : العقل ، وفكاك الأسير ، ولا يقتل مسلم بكافر .

ويروى الامام البخارى :

« حدثنا أبو نعيم : الفضل بن دكين ، قال : حدثنا شيبان ، عن يحيى ، عن أبى سلمة ، عن أبى هريرة :

أن خزاعة قتلوا رجلا من بنى ليث ، عام فتح مكة بقتيل منهم قتلوه ، فأخبر بذلك النبى صلى الله عليه وسلم ، فركب راحلته ، فخطب فقال :

« ان الله حبس عن مكة القتل ، أو الغيل : شك أبو عبد الله ، وسلط عليهم رسول الله ، صلى الله عليه وسلم والمؤمنين ، ألا وانها لم تحل لأحد قبلى ولم تحل لأحد بعدى ، ألا وانها حلت لى ساعة من نهار ، ألا وانها ساعتى هذه حرام ، لا يختلى شوكها ، ولا يعضد شجرها ، ولا تلتقط ساقطتها الا لمنشد ، فمن قتل فهو بخير النظرين : اما أن يعقل واما أن يقاد أهل القتيل .

فجاء رجل من أهل اليمن ، فقال : اكتب لى يا رسول الله ، فقال : اكتبوا لأبى فلان .

فقال رجل من قريش : الا الادخر ، يا رسول الله ، فانا نجعله فى بيوتنا وقبورنا .

فقال النبى ، صلى الله عليه وسلم : الا الاذخر ، الا الاذخر .

قال : أبو عبد الله : يقال : يقاد ، بالقاف .

فقيل : لأبى عبد الله : أى شىء كتب لـــه ؟

قال : كتب لـــه هذه الخطبـــة .

ويقول البخـــارى :

حدثنا على بن عبد الله ، قال حدثنا سفيان ، قال حدثنا عمرو، قال أخبرنى وهب بن منبه ، عن أخيـــه ، قال : سمعت أبا هريرة يقول : ما من أصحاب النبى صلى اللـــه علي هوسلم ، أحد أكثر حديثا عنه منى الا ما كان من عبد الله بن عمرو ، فانه كان يكتب ولا أكتب . تابعه معمر ، عن همام ، عن أبى هريرة » انتهـــى عن البخـــارى .

ولقد اشتهرت كتابة عبد الله بن عمرو لكل ما يصـــــدر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، حتى لقـــد نوقش فى ذلك من بعض القرشيين: يقول الله عنه–حسبما يروى فى سنن الدارمى وغيره كنت أكتب كل شىء أسمعه من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أريد حفظه ، فنهتنى قريش ، وقالوا : تـــكتب كل شىء سمعته من رسول الله صلى اللـــه عليه وسلم ، ورسول اللـــه صلى الله عليه وسلم بشر ، يتكلم فى الغضب والرضا ، فأمسكت عن الكتاب ، فذكرت ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأومأ بأصبعه الى فيه ، وقال : اكتب ، فوالذى نفسى بيده ما خرج منه الا حـــق .

وروى عن أبى هريرة — كما يذكر الترمذى — أن رجلا من الأنصار كان يشهد حديث رسول الله ، صلى الله عليه وسلم فلا يحفظه ، فيسأل أبا هريرة ، فيحدثه ، ثم شكى قلة حفظه الى الرسول صلى الله عليه وسلم، فقال له النبى صلى الله عليه وسلم: استعن على حفظك بيمينك أى بالكتابة .

وروى عن رافع بن خديج ، كما يذكر فى كتاب :«تقييد العلم» أنه قال : — قلنا يارسول الله ، انا نسمع منك أشياء ، أفنكتبها؟ قال : « اكتبوا ولا حرج » .

على أنه قد روى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أنه كتب كتاب الصدقات والديات ، والفرائض ، والسنن ، لعمر بن حزم وغيره ، كما يروى ذلك صاحب — كتاب « جامع بيان العلم وفضله » .

هذا بعض ما كان من الصحابة فى عهد الرسول صلى الله عليه وسلم . وتكثر الروايات فيما كان من كتابة الصحابة بعد انتقاله، صلوات الله وسلامه عليه الى الرفيق الأعلى .

ففى مسند الامام أحمد عن أبى عثمان النهدى قال ، كنا مع عتبة بن فرقد ، فكتب اليه عمر بأشياء يحدثه عن النبى صلى الله عليه وسلم ، فكان فيما كتب اليه : —

أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: ــ «لا يلبس الحرير في الدنيا الا من ليس له في الآخرة منه شيء الا هكذا :

وقال بأصبعيه السبابة والوسطى » قال أبو عثمان : « فرأيته أنها أزرار الطيالسة حين رأينا الطيالسة » •

ولقد كان الصحابة ، ينقل بعضهم عن بعض ، فعروة بن الزبير رضى الله عنه ، ينقل عن خالته ، السيدة عائشة ، رضوان اللـــه عليها ، فتقول له : يا بنى ، بلغنى أنك تــكتب عنى الحديث ، ثم تعود فتكتبــه •

فقال لها : أسمعه منك على شيء ، ثم أعود فأسمعه على غيره•

فقالت : هل تسمع فى المعنى خـــلافا ؟

قال : لا

قالت : لا بأس بذلك •

وبشير بن نهيك يكتب عن أبى هريرة : ويجـــيزه أبو هريرة بالرواية عنه •

يقول بشير ــ كما يذكر كتاب : « السنة قبل التدوين » نقلا عن كتاب : « المحدث الفاضل » وغيره ، أتيت أبا هريرة بكتابى الذى كتبته ، فقرأته عليه ، فقلت : هذا سمعته منك ؟

قال . نعـــم •

وكان لابن عباس ، رضى الله عنه ألواح يكتب فيها عن الصحابة : مثل أبى رافع صاحب رسول الله ، صلى الله عليه وسلم .

بل لقد وصل الأمر بأنس رضى الله عنه ، الذى لازم رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، ملازمة تكاد تكون تامة ، طيلة عشر سنوات أنه كان يملى الحديث على جموع من الطالبين ، فاذا كثر عليه الناس ، واحتاجوا الى صحف يكتبون فيها ، جاء اليهم بها من عنده فألقاها اليهم ، ثم قال : ـ هذه أحاديث سمعتها وكتبتها عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وعرضتها عليه .

وكان يقول ، رضى الله عنه ، لبنيه : يا بنى قيدوا العلم بالكتاب .

وكان الصحابة يتراسلون فى الأحاديث : يستفسرون ويتذاكرون ، فمعاوية بن أبى سفيان ، رضى الله عنه ، يكتب للمغيرة بن شعبة رضوان الله عليه ، عدة مرات ، يستفسر عن بعض ما يرويه المغيرة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم .

فيجيبه المغيرة بن شعبة مرة عما كان رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، مثلا ، يقول فى ختام كل صلاة :

« اللهم لا مانع لما أعطيت ، ولا معطى لما منعت ، ولا راد لما قضيت ، ولا ينفع ذا الجد منك الجد » .

ويجيبه مرة أخرى بأن رسول الله صلى الله عليه وسـلم ، نهى عن ، قيل وقال ، وكثرة السؤال ، واضاعة المال •

ويكتب زياد بن أبى سفيان الى السيدة عائشة رضوان الله عليها ، يسألها عن مسائل تتعلق بالحج ، ويذكر لها فتـوى ابن عباس رضى الله عنه • فتكتب له بما كان ، صلى الله عليه وسلم، يفعله فى الحج •

ويصف المرحوم الأستاذ السباعى بعض الجهود التى قام بها الصحابة لجمع الحديث فيقول فى نهاية حديثه عن تلك الجهود:

فلما كان عهد عثمان سمح للصحابة أن يتفرقوا فى الأمصار، واحتاج الناس الى الصحابة ، وخاصة صغارهم ، بعد أن أخـذ الكبار يتناقصون يوما بعد يوم ، فاجتهد صغار الصحابة بجمع الحديث من كبارهم ، فكانوا يأخذونه عنهم •

كما كان يرحل بعضهم الى بعض من أجل طلب الحديث فقد أخرج البخارى فى الأدب المفرد ، وأحمد ، والطبرانى ، والبيهقى، واللفظ له ، عن جابر بن عبد الله قال : بلغنى حديث عن رجل من أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم ، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، لم أسمعه ، فابتعت بعيرا فشددت عليه رحلى ، ثم سرت اليه شهرا حتى قدمت الشام ، فاذا هو عبد الله بن أنيس الأنصارى ، فأتيته ، فقلت له :

حديث بلغنى عنك أنك سمعته من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فى المظالم لم أسمعه ، فخشيت أن أموت ، أو تموت قبل أن أسمعـــه .

فقال : سمعت رسول الله ،صلى الله عليه وسلم ، يقول : « يحشر الناس غرلا بهمـــا » .

قلنا : وما لهم ؟

قال : ليس معهم شىء ، فيناديهم نداء يسمعه من بعد كما يسمعه من قرب : أنا الديان لا ينبغى لأحد من أهل النار أن يدخل النار وأحد من أهل الجنة عنده مظلمة حتى أقتصها منه .

ولا ينبغى لأحد من أهل الجنة أن يدخل الجنة وأحد من أهل النار يطلبه بمظلمة حتى أقتصها منه حتى اللطمة .

قلنا : كيف ؟ وانما نأتى الله عراة غرلا بهما ؟

قال : بالحسنات والسيئات .

وأخرج البيهقى وابن عبد البر عن عطاء بن أبى رباح أن أبا أيوب الأنصارى رحل الى عتبة بن عامر يسأله عن حديث سمعه من رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، لم يبق أحد سمعه منـــه غيره ، فلما قدم الى منزل مسلمة بن مخلد الأنصارى — وهو أمير مصر — فخرج اليه فعانقه ، ثم قال :

ما جاء بك يا أبا أيوب ؟

قال : حديث سمعته من رسول الله ، صلى الله عليه وسلم، فى ستر المؤمن •

فقال : نعم ، سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، يقول: «من ستر مؤمنا فى الدنيا على كربنه، ستره الله يوم القيامة»

ثم انصرف أبو أيوب الى راحلته ، فركبها راجعا الى المدينة، فما أدركته جائزة مسلمة الا بعريش مصر » ا ﻫ

ولقد وقر فى أذهان الناس ، بصورة راسخـــة أن السنة لم تدون الا فى القرن الثانى ، ومن أجل اقتلاع هذه الفكرة الخاطئة أطلنا فى نقل بعض النصوص التى تثبت الحقيقة ، وهى أن السنة دونت فى القرن الأول : فى عهد الرسول صلى الله عليه وســـلم، وفى عهد الصحابة الأجلاء •

ومن أجل زيادة الأمر وضوحا ، ومن أجل تأكيد الحقيقة فى الأذهان : ننقل هنا أيضا رأى الأستاذ الجليل ، السيد سليمان الندوى ، كبير علماء مسلمى القارة الهندية ، هذا العصر : ننقله عن كتابه النفيس : « الرسالة المحمدية » وهو محاضرات ألقاها فى جامعة مدراس • يقول :

وانى أكشف القناع لأول مرة فى ناديكم هذا ، بأن من زعم أن الأحاديث النبوية لم تدون الى مائة سنة أو تســعين سنة قد أخطأ ، والتاريخ يعارضه •

والسبب فى هذا الخطـــأ ظنهم أن أول كتاب فى الحديث النبوى « كتاب الموطأ » لمالك بن أنس ، وأول كتاب فى الســيرة كتاب المغازى لابن اسحاق ، وهذان الامامان الجليـــلان كانا معــاصرين ، وتوفى الأول سنة ١٧٩ هـ ، والثــانى سنة ١٥١ هـ ، فاعتبروا العقود الأولى من القرن الثانى بداية تدوين الأخــبار والســير ٠

والأمر ليس كذلك ٠ فان بواكير التدوين ابتدأت قبــل ذلك بكثير ، وقد كان أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز المتوفى سنة ١٠١ عالما جليلا ، ولى امارة المدينة ثم استخلف سنة ٩٩ ، وقد عهد الى القاضى ٠ أبى بكر بن محمد بن عمرو بن حزم — الذى كان اماما فى الحديث والخبر — أن يبدأ فى تدوين سنن النبى صــلى الله عليه وسلم وأخباره ؛ لأنه خاف على العلم أن يرفع شيئا فشيئا ٠

وخاف دروس العــلم وعفاءه ، وقد ذكر هذا فى تعليقــات البخارى ، والموطأ لمالك ، والمسند للدارمى ٠ فقام بذلك أبو بكر ابن حزم ، وكتبت الأحاديث والأخبــار والسنن فى القراطيس ، وأرسلت الى دار الخلافة بدمشق ، ونسخت فى الصحف والكتب ، وبعث بها الى البلاد الاسلامية وكبريات المدن يومئذ (مختصر جامع بيان العلم للحافظ بن عبد البر ص ١٣٨ طبع بمصر) ٠

فأبو بكر هذا الذى علمتم مكانته من العلم والفضل ، وكان قاضيا بالمدينة المنورة ، هو الذى اختاره عمر بن عبد العزيز لهذا العمل الجليل ، لعلمه وفضله ، ولأن خالته عمرة كانت من كبريات تلميذات أم المؤمنين عائشة ، وكان ماروته خالته عمـرة عن أم المؤمنين عائشة محفوظا عنده . فأوعز اليه عمر بن عبد العزيز بتدوين مرويات خالته ، وقد اختصها بالذكر فى كتابه اليه .

ويتابع السيد سليمان الندوى حديثه فيقول :

وأمر صلى الله عليه وسلم ، فكتبت أحكام الزكاة ، وماتجب فيه ، ومقادير ذلك ، فكتبت مشروحة مفصلة فى صفحتين ، وبعثه بصورة ذلك الى أمراء البلاد وولاتها ، وبقيت محفوظة فى بيت أبى بكر الصديق ، وأبى بكر بن عمرو بن حزم . (الدار قطنى فى كتاب الزكاة ٢٠٩) وكان عند عمال الزكاة رسائل فيها أحـكام الزكاة .

وكان لمرويات عبد الله بن عباس كراريس عدة .

وجاءه قوم من أهل الطائف بكراسة منها ليرووها عنه (العلل للترمذى ص ٦٩١) .

وكان سعيد بن جبـير يكتب روايات عبد الله بن عبـاس (الدارمى ٦٩)وبقيت صحيفة عبد اللـه بن عمرو (الصادقة) موجودة عند حفيده : عمرو بن شعيب (سنن الترمذى) (ص ٦١ ، ١١٣) .

كانوا يضعفون عمرو بن شعيب ، لأنه يروى من الصحيفة، وكان ينبغى له أن يروى من حفظه .

وجمع وهب التابعى روايات جابر بن عبد الله ، وكانت عند اسماعيل بن عبد الكريم ، وضعفوه لأجل ذلك (تهذيب التهذيب لابن حجر : ٣١٦) .

وروى سليمان بن سمرة بن جندب : أنه كان عند أبيه صحيفة فيها أحاديث . وكذلك روى ابنه حبيب بن سليمـــان — (تهذيب التهذيب ٤ : ١٩٨) .

وجمع همام بن منبه روايات أبى هريرة ، وهو أكثر الصحابة رواية ، وأوعاهم حفظا لأحاديث الرسول ، صلى الله عليه وسلم فصارت تعرف صحيفته بين المحدثين بصحيفة همام،وقد أوردها الامام أحمد بن حنبل فى الجزء الثانى من مسنده (ص ٣١٢ — ٣١٨ الطبعة الأولى) وكذلك بشـــير بن نهيك : كتب مروياته عن أبى هريرة فى كتاب وقرأه عليه .

(كتاب العلل للترمذى ص ٦٩١ . والدارمى ص ٦٨ والسنن الـــكبرى للبيهقى ١٠ : ٢٨٠) .

وذكر ابن حجر فى كتابه فتح البارى : أن أبا هريرة جاء برجل الى بيتـــه وأراه أوراقا وقال : هذه رواياتى . وقال الذى روى ذلك : انها لم تكن مكتوبة بيده . (فتح البارى ١ : ١٨٤ — ١٨٥).

وكان أنس بن مالك — وهو معروف بكثرة الرواية — يقول لأولاده يا بنى اكتبوا العلم وقيدوه بالكتابة (الدارمى ص ٦٨).

وكان تلميذه « ابان » يكتب رواياته بين يديه . (الدارمى ص ٦٨) .

وروى عن سلمى قالت : رأيت عبد الله بن عباس يستملى أبا رافع خادم رسول الله ، صلى الله عليه وسلم،ما كان صلى الله عليه وسلم ، يفعل أو يقول (طبقات ابن سعد ٢/٢ : ١٢٣).

والواقدى وهو من متقدمى المصنفين فى السيرة النبوية يقول: رأيت عند عبد الله بن عباس الكتاب الذى أرسله رسول الله صلى الله عليه وسلم ، الى المنذر بن ساوى سيد عمان مع كتب أخرى . (زاد المعاد ٢ : ٥٧) .

وفى تاريخ الطبرى : أن عروة بن الزبير كتب جميع ما كان فى غزوة بدر مفصلا الى عبد الملك الخليفة الأموى (الطبرى ١٢٨٥) .

ويقول سعيد بن جبير التابعى : كنت أكتب على الأقتاب ما أسمعه فى الليل من عبد الله بن عمر وعبد الله بن عباس ، فاذا أصبحت كتبته واضحا . (الدارمى ص ٦٩) .

وكان أصحاب البراء بن عازب يكتبون عنده رواياته. (الدارمى ٦٩) .

وكان نافع — وقد صحب ابن عمر ثلاثين سنة — يملى على الناس (الدارمى ص ٦٩) .

وعن عبد الرحمن بن عبد الله بن مسعود أنه أخرج كتابا وقال : وأيم الله ، هذا ما كتبته يد ابن مسعود . (جامع العلم لابن عبد البر ص ١٧) .

ونتابع الحديث فى الموضوع على الرغم من أن الأمر أصبح واضحا فنضيف الى ما سبق :

أن مروان قد خطب فى الناس فذكر مكة وحرمتها . فقال رافع ابن خديج بصوت يسمعه الناس :

والمدينة حرم حرمها رسول الله ، صلى الله عليه وسلم.وهو مكتوب عندنا فى أديم خولانى ان شئت أن نقرئكه فعلنا .

فناداه مروان . أجل قد بلغنا ذلك . (مسند الامام أحمد ابن حنبل ٤ : ١٤١) .

وأرسل الضحاك بن قيس كتابا الى النعمان بن بشير يسأله فيه عن السورة التى كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقرؤها فى صلاة الجمعة غير سورة الجمعة .

فكتب اليه يقول : كان يقرأ «هل أتاك» (صحيح مسلم).

وكتب عمر بن الخطاب الى عتبة بن فرقد كتابا ذكر فيه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، نهى عن لبس الحرير (صحيح مسلم) .

ويقول مجاهد : « رأيت عند عبد الله بن عمرو كتابا فسألته: ما هذا ؟ فقال : هذه « الصادقة » فيها ما سمعته من رسول الله

صلى الله عليه وسلم ، ليس فى ذلك بينى وبين رسول الله صلى الله عليه وسلم أحد » .

ولما ولى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، عمرو بن حزم اليمن وبعثه اليها أعطاه أحكاما مكتوبة فى الفرائض والصدقات والديات « كنز العمال ٣ : ١٨٦ » .

وتلقى عبد الله بن حكيم كتابا من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فيه أحكام الحيوانات الميتة (المعجم الصغير للطبرانى ص ٢١٧) .

ولما أراد وائل بن حجر أن يرجع الى بلاده حضرموت ناوله رسول الله صلى الله عليه وبسلم،كتابا فيه أحكام الصلاة والصوم والربا والخمر وغير ذلك (الطبرانى ص ٢٤٢) .

ولما وجه أمير المؤمنين عمر بن الخطاب السؤال الى أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ان كان عند أحد منهم سنة عن النبى صلى الله عليه وسلم ، فى نصيب المرأة من دية زوجها قام الضحاك بن سفيان فقال :

نعم عندنا كتاب من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، يبين فيه ذلك (الدار قطنى ٢ : ٤٨٥) . (١)

وقد بلغ عدد الصحابة رضى الله عنهم فى آخر حياة النبى صلى الله عليه وسلم —عندما حج حجة الوداع— مائة ألف ، ومن

---

(١) أنظر « السنة قبل التدوين » والسنة ومكانتها فى التشريع الاسلامى - ورجال الفكر والدعوة .

هؤلاء عشرة آلاف صحابى مذكورة أسماؤهم وأحوالهم فى كتب التاريخ التى أفردت لتدوين أحوالهم خاصة .

وان التاريخ لم يهتم بتدوين أحوالهم ولم يحفظ لنا شئونهم الا لأن كل واحد منهم حفظ شيئا من أقوال النبى صلى الله عليه وسلم ، وأفعاله وتصرفاته وهديه وسيرته .

لقد توفى رسول الله صلى الله عليه وسلم . سنة ١١ من الهجرة النبوية ، وبقى فريق من كبار الصحابة بعده الى سنة أربعين ، وبقى بعد ذلك من الصحابة . الذين كانوا أحداثا فى حياة النبى صلى الله عليه وسلم ، عدد غير قليل . فلما انقرض ذلك الجيل لم يبق من الصحابة أحد . وانطفأ كل سراج أوقد بنور النبوة .

واليكم أسماء آخر من مات من الصحابة ، والبلاد التى ماتوا فيها ، وسنوات وفاتهم .

آخر الصحابة موتا	المدن التى توفوا فيها	سنة الوفاة
١ — أبو أمامة	الشام	٨٦
٢ — عبد الله بن الحارث بن جزء ...	مصر	٨٦
٣ — عبد الله بن أبى أوفى	الكوفة	٨٧
٤ — السائب بن يزيد	المدينة	٩١
٥ — أنس بن مالك	البصرة	٩٣

وأنس بن مالك هذا الذى كان آخر من بقى من الصحابة كان الخادم لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، استمر فى خدمته عشر سنوات متوالية .

ومعظم هذه الثروة الحديثية كما يقول الأستاذ الجليل أبو الحسن الندوى ــ قد كتب ودون بأقلام رواة فى العصر الأول، وقد يزيد ما حفظ فى الكتب والدفاتر كتابة وتحريرا فى العصر النبوى وفى عصر الصحابة رضى الله عنهم ، على عشرة آلاف حديث، اذا جمعت صحف ومجاميع أبى هريرة وعبد الله بن عمرو ابن العاص ، وأنس بن مالك، وجابر بن عبد الله، وعلى وابن عباس رضى الله عنهم ، فيمكن أن يقال : ان ما ثبت من الأحاديث الصحاح واحتوت عليه مجاميعها ومسانيدها قد كتب ودون فى عصر النبوة وفى عصر الصحابة قبل أن يدون الموطأ والصحاح، بكثير .

جمعت السنة اذن ــ جميعها تقريبا ــ فى عهد الرسول صلى الله عليه وسلم ، وعهد الصحابة .

جمعت دون ترتيب ولا تنسيق .

جمعت متفرقة متناثرة، يكتب هذا الحديث والحديثين، ويكتب الآخر المائة والمائتين ، ويزيد الثالث عن ذلك ، ويملى الرابع من

حفظه على الآخرين ، وهـكذا ، وفى ذلك لم يـكن لأحد اهتمام بالتنضيـد أو التنسيق •

يقول الأستاذ العالم الورع المتثبت أبو الحسن الندوى فى كتابه « رجال الفكر والدعوة » ما يلى :

واذا جمعت هذه الصحف والمجاميع . وما احتوت عليه من الأحاديث . كونت العدد الأكبر من الاحـاديث التى جمعت فى الجوامع والمسانيد والسنن فى القرن الثالث •

وهكذا يتحقق أن المجموع الكبير الأكبر من الأحاديث سبق تدوينه وتسجيله –من غير نظام وترتيب– فى عهد الرسول صلى الله عليه وسلم ، وفى عصر الصحابة . رضى الله عنهم •

ويتحدث الأستاذ أبو الحسن الندوى عن الوهم الشائع بين الناس من أن السنة لم تدون الا فى القرن الثالث ، ويعلل هـذا الوهم تعليلا منطقيا فيقـول :

وقد شاع فى الناس — حتى المثقفين والمؤلفين — أن الحديث لم يـكتب ولم يسجل الا فى القرن الثالث الهجرى . وأحسنهم حالا من يرى أنه قد كتب ودون فى القرن الثانى •

وما نشـأ ذلك الغلط الا عن طريقتين :

الأولى : أن عامة المؤرخين يقتصرون على ذكر مدونى الحديث

فى القرن الثانى ، ولا يعنون بذكر هذه الصحف والمجاميع التى كتبت فى القرن الأول ، لأن عامتها فقدت وضاعت مع أنها اندمجت وذابت فى المؤلفات المتأخـــرة .

الثانية : أن المحدثين يذكرون عدد الأحاديث الضخم الهائل الذى لا يتصور أن يكون قد جاء فى هذه المجاميع الصغيرة التى كتبت من القرن الأول،مع أن عدد الأحاديث الصحاح غير المتكررة المتجردة من المتابعات والشواهد لا يزال قليـــلا .

وقد نبه على ذلك العلامة ، مناظر أحسن الـــكيلانى رئيس القسم الدينى سابقا فى الجامعة العثمانية بحيدر آباد فى كتابـــه العظيم : « تدوين الحديث » يقول رحمه اللــــه :

وقـــد يتعجب الانسان من ضخامة عـــدد الأحاديث المروية فيقال:ان أحمد بن حنبل كان يحفظ أكثر من سبعمائة ألف حديث.

وكذلك يقال عن أبى زرعـــة .

ويروى عن الامام البخارى أنـــه كان يحفظ مائتى ألف من الأحاديث الضعيفة ، ومائة ألف من الأحاديث الصحيحة .

ويروى عن مسلم أنه قال : جمعت كتابى من ثلاثمائة ألف حديث ولا يعرف كثير من المتعلمين ـــ فضلا عن العامة ـــ أن الذى يكون هذا العدد الضخم هو كثرة المتابعات والشواهد التى عنى بهـــا المحـــدثون .

فحديث « انما الأعمال بالنيـــات » مثلا يروى من سبعمائة طريق • فلو جردنا مجاميع الحديث من هذه المتابعات والشواهد لبقى عدد قليل من الأحاديث •

فالجامـــع الصحيح للبخارى لا تزيد الأحاديث التى رويت بالسند الصحيح فيه على ألفين وستمائة وحديثين •

وأحاديث مسلم يبلغ عددها الى أربعة آلاف حديث •

وهكذا لا يبلغ عدد الأحاديث المروية فى كتب الصحاح الستة، ومسند أحمد ، وكتب أخرى ، خمسين ألف حديث . منها الصحيح، ومنها السقيم . ومنها المتفق عليه . ومنها المتـــكلم فيه •

وقد صرح الحاكم أبو عبد الله ـــ الذى يعد من المتسامحين المتوسعين أن الأحاديث التى فى الدرجـــة الأولى لا تبلغ عشرة آلاف « توجيه النظر ص ٩٣ » •

ويقول الأستاذ :

ولم ينتصف القرن الثانى حتى كانت حركة الجمع والتدوين أنشط وأقـــوى •

وكان ممن سبق اليها من الرجال هذا القرن :

ابن شهاب الزهـــرى (مات عام ١٣٤ هـ) •

وابن جريـــج المـــكى (مات عام ١٥٠ هـ) •

وابن اسحاق (مات عام ١٥١ هـ) .

ومعمر اليمنى (مات عام ١٥٣ هـ) .

وسعيد بن أبى عروبة المدنى (مات عام ١٥٦ هـ) .

وربيع بن صبيح (مات عام ١٦٠ هـ) .

وسفيان الثورى (مات عام ١٦١ هـ) .

ومالك بن أنس (مات عام ١٧٩ هـ) .

والليث بن سعد (مات عام ١٧٥ هـ) .

وابن المبارك (مات عام ١٨١ هـ) .

ثم تتابع الناس (١) .

ليس من همنا فى هذا الفصل أن نتابع السنة فى تدوينها، وانما أردنا أن نوضح فى هذا الفصل توضيحا شافيا فكرة أن السنة دونت فى عهد الرسول ، صلى الله عليه وسلم ، وعهد الصحابة، رضوان الله عليهم ، وأظن أنه قد استبان الآن الأمر بما لايحتاج الى مزيد ، وشكر الله للباحثين الأعلام المتبصرين الذين استندنا اليهم فى هذا الحديث .

---

(١) أنظر كتاب « رجال الفكر والدعوة » لأبى الحسن الندوى .

الفصـــل الثـــالث

المحدثون فى جهـــادهم

وفى ضوء ما سبق قد يتساءل بعض الناس ؟ هل معنى ذلك أنه لم تحدث محاولات للوضع ، أو حدث وضع بالفعـــل ، وتزييف، واختراع فى الســـــنة ؟ والواقع أن من يزعم أن السنة ــ على مجرى التاريخ قد خلت من الوضع انما ينكر الحقائق الثابتة •

لقد حاول الكثيرون وضع أحاديث على لسان الرسول، صلى الله عليه وسلم ، وحاولوا ذلك لأسباب مختلفة منها : ــ

١ــ أن بعض الناس كذابون بطبيعتهم ، اتخـــذوا الـــكذب هواية لا يستقيم أمرهم الا على الكذب ، فكذبوا على رسول الله صلى اللهعليه وسلم ، واذا كان من المعروف فى جميع الأديان أن بعض الناس يكذب على الله ، فان من الأمور التى تحدث أن يكذب بعض الناس على رسول الله ، صلى الله عليه وسلم •

٢ــ وبعض الناس يسيطر عليه مذهب من المذاهب أو نزعة من النزعات ، ويتشبع بذلك حتى يملأ عليه أقطاره فيكذب على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، تأييدا لمذهبه ، وتأكيدا لنزعته، وارضاء لهواه •

٣ــ وبعض الناس دخل فى الاسلام كرها للاسلام: دخله ليتآمر

عليه ، دخله ليكون فى ظروف أكثر ملاءمة للتآمر عليـــه : فكذب على رســـول الله صلى الله عليه وســـلم : افسادا للمبـــادىء الاسلامية الصحيحة ، وتزييفا لها .

٤ـ وبعض الناس استباح الكذب على رسول الله صلى الله عليه وسلم : فى سبيل موعظة الآخرين وهدايتهم ، ورأى أن غايته التهذيبية تبيح له ركوب هذا المركب الفاسد .

هذه هى كل أو أكثر الأسباب التى دعت الى وضع الأحاديث والكذب على رسول الله صلى الله عليه وسلم .

ولكن ذلك لم يكن فى السنة بدعا من الأمر .

فهذه الأسباب فى الجملة كانت ولا تزال الأسبـــاب لتزييف التـــاريخ .

ان التاريخ ـ منذ عرف ـ لم يخل من العوامل التى تحاول وضعه على غير ما كان عليه بالفعل ، وتلوينه على الصورة التى يريد بعض الناس ـ ملوكا أو أمراء أو زعمـــاء على أى وضـــع كانوا ـ أن يكون عليها .

ولكن تزييفهم للتاريخ لم يمنع من ظهور الحقائق ، وكذبهم على التاريخ لم يمنع من بيان الحق ومعرفة الناس له .

ولقد وضع المؤرخون المحدثون أصـــولا للنقـــد ، وعلامات للحوادث المزيفة وقواعد لمعرفة الحقيقة .

ولقد استعانوا فى سبيل المعرفة الصحيحة باللغة، وبالحوادث اليقينية المتواترة ، وبالشهود العدول ، وبالمقارنات .

لقد استعانوا بالنقد الداخلى ، والنقد الخارجى ووصلوا بذلك الى الحقائق التى يطمئنون اليها ، برغم ما يفصل بينهم وبين مكان الأحداث من آلاف الأميال ، وبرغم ما يفصل بينهم وبين أزمنة الحوادث من عشرات القرون .

ومع كل ما حاوله المؤرخون من جهد ، ومع كل ما وضعوه من قواعد للوصول الى اليقين فانهم — والحق يقال — لم يصلوا فى كل ذلك الى ما وصل اليه سادتنا المحدثون ، رضوان الله عليهم . وذلك للأسباب التالية :

١— لقد بدأ تسجيل السنة فى عهد الرسول صلى الله عليه وسلم ، وتم تسجيلها — كلها تقريبا — فى عهد الصحابة رضوان الله عليهم ، فكان قرب الزمن ، اذن ، من عوامل صحة السنة .

٢— وسجل أكثرها فى المكان نفسه الذى كان فيه رسول الله، صلى الله عليه وسلم ، أو فى أمكنة قريبة ، نسبيا ، منه .

٣— ولقد روى عن الرسول صلى الله عليه وسلم ، أحاديث كانت تحد من الوضع ، فى المبدأ على الأقل ، مثل حديث :

« من كذب على متعمدا فليتبوأ مقعده من النار » .

وهذه ملاحظات نذكرها لا لنقول انها حاسمة فيما يتعلق بأمر

صحة ما روى — ولقد قدمنا : أن الوضع وجد بالفعل — ولكننا نذكرها فى مقابلة ما يحاول بعض النـــاس التهـــويل به من أمر التزييف والوضع .

أما الأمور الحاسمة التى تجعلنا نثق فى النتائج والثمار التى وصل اليها سلفنا الصـــالح فيما يتعلق بأمر الســـنة ، فان فى أســـاسها :

١ — ايمان هؤلاء السلف بأنهم فى عنايتهم بالســـنة :— بما صح منها ، وبما وضع فيها — انما يجاهدون فى سبيل الله .

لقدكانوا مؤمنين ايمانا عميقا ثابتا بأن فىعنقهمواجبا دينيا هو أن يخلصوا سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، من كل زيف، وأن ينقوها من الكدورات فىاخلاص مخلص، وفى صورةمن اليقين لا يفترون فى الوصول اليه .

ولقد كانوا يعدون بالآلاف ، ويمتـــازون — كما يقـــول أبو الحسن الندوى — بعلو نشاطهم ، وقوة احتمالهم وصـــبرهم، وقوة ذاكرتهم وحفظهم ، وقد تدفق ســـيلهم من بلاد العجـــم، وقد ملكت قلوبهم وعقولهم الرغبة الشديدة فى جمع الحـــديث، وشغفوا به شغفا حال بينهم وبين الشهوات ، فطاروا فى الآفاق، ونقبوا فى البلاد فى البحث عن الروايات المختلفة ، والأســـانيد الصحيحـــة .

وكان لهم فى ذلك هيام وغرام لم يعرفا عن أمة من الأمم فى التاريخ كله ، يدل على ذلك بعض الدلالة ما يروى عن المحدثين من التجول فى البلاد ، والسفر فى العالم الاسلامى ، من أقصاه الى أقصاه .

فقد روى : أن البخارى صاحب الصحيح ، بدأ رحلته العلمية وهو لا يزال فى الرابعة عشرة من سنه ، وقد زار البلدان الاسلامية : ما بين بخارى ومصر وشيوخها .

وروى عن أبى حاتم الرازى م ٢٧٧ هـ قال :

« أول مارحلت أقمت سبع سنين ، ومشيت على قدمى زيادة على ألف فرسخ ثم تركت العدد وخرجت من البحرين الى مصر ، ثم الى الرملة ماشيا ، ثم الى طرسوس ولى عشرون سنة » .

وقد سمع محدث الأندلس ابن حيون (م ٣٧٤ هـ) الحديث فى الأندلس والعراق ، والحجاز واليمن ، وهكذا قطع قارة أفريقيا من طنجة الى مصر ، وعبر البحر الأحمر .

ومن المحدثين من سافر فى قارة أفريقيا وآسيا وأوربا فى طلب الحديث وهكذا انتظمت رحلته العلمية ثلاث قارات كبرى .

وكان كثير من المحدثين يخرج من الأندلس أقصى الغرب فى العالم المتمدن المعروف يومئذ ويبلغ أقصاه فى الشرق الى خراسان أو بالعكس . والمطالع فى تذكرة الحفاظ للذهبى يدهش لطموح هؤلاء الرجال واحتمالهم المشاق فى طلب العلم .

٢ـ ولقد استعمل أئمتنا النقد الداخلى والنقد الخارجى ، بل لقد استعملوا ما يمكن أن نسميه المشاركة الوجدانية ، أو بعبارة أدق ، استرواح رائحة النبوة ، أو استلهام طابع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فى الحديث ، أو استبصار القلب ، والهام الروح ، واشراق البصيرة ، فى المعرفة :

يقول الربيع بن خيثم :

« ان من الحديث حديثا له ضوء كضوء النهار تعرفه به .

وان من الحديث حديثا له ظلمة كظلمة الليل تعرفه بها (١) » .

وهذه الطريقة تعتبر فى العصر الحاضر الأوروبى من ابتداعات القرن العشرين . لقد استعملها أئمتنا ووضعوا لها الأصول ، وبينوا كيفيتها ، ولم يتركوها للأهواء والمشارب ، ومن أدق التعبيرات عنها ما يقوله ابن القيم :

سئلت : هل يمكن معرفة الموضوع بضابط ، من غير أن ينظر فى سنده ؟

فهذا سؤال عظيم القدر

وانما يعلم ذلك من تضلع فى معرفة السنن الصحيحة ، واختلطت بدمه ولحمه ، وصار له فيها ملكة ، وصار له اختصاص شديد بمعرفة السنن والآثار ، ومعرفة رسول الله صلى الله عليه

---

(١) الحاكم : فى معرفة علوم الحديث ص ٢٦

وسلم ، وهديه فيما يأمر به وينهى عنه ، ويخبر عنه ويدعو اليه، ويحبه ويكرهه ، ويشرعه للأمة ، بحيث كأنه مخالط للرسول صلى الله عليه وسلم كواحد من أصحابه .

ومثل هذا يعرف من أحوال الرسول صلى الله عليه وسلم، وهديه وكلامه ، وما يجوز أن يخبر عنه ، وما لا يجوز — ما لا يعرفه غيره .

وهذا شأن كل متبع مع متبوعه ، فللأخص به ، الحريص على تتبع أقواله وأفعاله فى العلم بها ، والتمييز بين ما يصح أن ينسب اليه وما لا يصح — ما ليس لمن لا يكون كذلك .

وهذا شأن المقلدين مع أئمتهم : يعرفون من أقوالهم ونصوصهم ومذاهبهم وأساليبهم ومشاربهم ما لا يعرفه غيرهم، وفى هذه الطريقة أيضا يقول ابن دقيق العيد :

« وكثيرا ما يحكمون بذلك (أى بالوضع) باعتبار يرجع الى المروى وألفاظ الحديث ، وحاصله أنها حصلت لهم بكثرة محاولة ألفاظ النبى صلى الله عليه وسلم هيئة نفسانية وملكة يعرفون بها ما يجوز أن يكون من ألفاظه وما لا يجوز » .

ويقول ابن الجوزى :

الحديث المنكر يقشعر له جلد الطالب للعلم ، وينفر منه قلبه فى الغالب .

٣ـ وانه لمن المعروف أن عناية سلفنا الصالح لم تكن موجهة الى جمع الحديث وتدوينه فحسب ، وانما تعدت ذلك ــ كما يقول الأستاذ الجليل أبو الحسن الندوى ــ الى الوسائط التى وقعت فى رواية الحديث ــ وهم الرواة الذين رووا هذه الأحاديث .

فعنوا بمعرفتهم ومعرفة أسمائهم وأسماء آبائهم ، وحوادث حياتهم وأخلاقهم ، ومكانتهم فى الأمانة ، والصدق ، والحفظ .

وهكذا أصبح الذين اتصلوا بالشخصية الكريمة التى وعد الله لها بالخلود وبقاء الذكر وانتشار الاسم «ورفعنا لك ذكرك» أصبح الذين اتصلوا بها موضوع الدارسين ، والباحثين،وخرجوا من زوايا الخمول واستحقوا الحياة والاشتهار ، وأصابهم فيض من حياة هذه الشخصية الخالدة ، فحيوا وظهروا واحتفظ التاريخ باسمائهم وأحوالهم ورآه حقا على نفسه ، وهكذا ظهر علم أسماء الرجال فى عالم الوجود ، وكان من مفاخر هذه الأمة التى لا تشاركها فيها أمة من الأمم،قال الدكتور «اسبرنجر» **Spreinger** فى مقدمته الانجليزية على كتاب الاصابة فى أحوال الصحابة للحافظ ابن حجر العسقلانى ما ترجمته :

«لم تعرف أمة فى التاريخ ، ولا توجد الآن على ظهر الأرض، وفقت لاختراع فن من أسماء الرجال الذى نستطيع بفضله أن نقف على ترجمة خمسمائة ألف (نصف مليون) من الرجال » .

ولم يعن المحدثون بتعريف رجال الحديث فحسب . بل التزموا الصدق والصراحة فى تعريفهم . وجمعوا كل ما يتصل بأخلاقهم وعاداتهم . وما يدل على قوتهم وضعفهم ، واحتياطهم وتساهلهم . وتقواهم وعلمهم وذاكرتهم ، وجمعوا كل ما قاله معاصروهم فيهم ، ولم يداروا ولم يجاملوا فى ذلك ، ولم يهابوا أحدا ، ولو كان بعضهم أميرا مهابا أو شيخا وقورا .

وقد روى التاريخ فى ذلك طرائف تدل على شدة هؤلاء الناقدين وعلمهم بقوله تعالى :

« كونوا قوامين بالقسط شهداء لله ولو على أنفسكم أو الوالدين والأقربين » وتدقيقهم .

قال أبو داود : كان أبو وكيع على بيت المال ، فكان وكيع ، (م ١٩٧) اذا روى عنه قرنه بآخر .

وقد ترك معاذ بن معاذ العنبرى (م ١٩٦ هـ)رواية المسعودى . لأنه رآه يطالع الكتاب ، يعنى قد تغير حفظه . وقد قدم اليه عشرة آلاف دينار ، وطلب منه أن يسكت عن فلان فلا يتكلم فيه بجرح ولا تعديل ، فأبى ورفض هذا الحال العظيم ، وقال «لاأكتم الحق » .

وهذا قليل من كثير جدا يدل على أمانة علماء الحديث والرجال، وتدقيقهم فى موضوعهم ، وتحريهم الحق والعدل فى شهاداتهم، فهل يوجد فى تاريخ العلم نظير لهذه الأمانة والتدقيق ؟

* * *

وما من شك فى أن سلفنا الصالح بدأ بالاهتمام بالاسناد :

أى بالاهتمام بهؤلاء الذين رووا الحديث واحــدا عن واحد حتى وصلوا به الى رسول الله صلى اللـــه عليه وسلم ، أو الى أحد الصحابة رضوان الله عليهم •

ولقد اهتموا بالاسناد الى درجة أن جعلوه من الدين •

يقــول الامام الزهــرى :

« الاسناد من الـــدين » •

لقد بحثوا عن هؤلاء الذين جاء حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم عن طريقهم :

لقد بحثوا عن ميلادهم ، وعن وفاتهم ، وعن أخلاقهم ، وعن غفلتهم وسهوهم،أو يقظتهم وصحوهم،وعن ذاكرتهم وضبطهم، لقد بحثوا عن كل ما يتصل بهم فى ألفاظهم التى ينطقون بها ، وفى سلوكهــم الذى يسيرون عليه ، وفى سمتهم من ناحيـــة الوقار والخفة ، وفى أهوائهم ومشاربهم ، وفى نزعاتهم ، وفى ميولهــم على وجه العمــوم •

لقد اخترع المسلمون علم تشريح كامل ، وضعوا به على مائدة المعرفة ما يقرب من نصف مليون من البشر •

لقد اخترعوا علما لــم يخترعه سابقوهم ، حتى بالنسبـــة لكتبهم المقدسة ولم يصل اليه لاحقوهم حتى فى العصر الحديث•

علما يقول عنه المستشرق الألمانى « اسبرنجر » فى تصديره لكتاب الاصابة لابن حجر حينما كان فى كلكتا ١٨٥٣ — ١٨٦٤ : — الكلمة التى سبق أن ذكرناها ، والتى تعبر عن الحقيقة الواقعة .

ولقد قيل مرة لابن المبارك — «هذه الأحاديث المصنوعة ؟ »ـ.

فقال « يعيش لهـا الجهابذة » .

هؤلاء الجهابذة قاموا بما عليهم خير قيـام .

يتحدث صاحب كتاب«تقدمة المعرفة لكتاب الجرح والتعديل» عن بعض ما قام به هؤلاء الجهابذة فيقول :

« التمييز بين الرواة » قال أبو محمـد :

فلما لم نجد سبيلا الى معرفة شىء من معانى كتاب اللـه، ولا من سنن رسول الله صلى الله عليه وسلم الا من جهة النقل والرواية : وجب أن نميز بين عدول الناقلة والرواة وثقاتهم وأهل الحفظ والتثبيت والاتقان منهم ، وبين أهل الغفلة والتشتت وسوء الحفظ والكذب ، واختراع الأحاديث الكاذبة .

ولما كان الدين هو الذى جاءنا عن الله عز وجل وعن رسوله صلى الله عليه وسلم ، بنقل الرواة ، حق علينا معرفتهم ، ووجب الفحص عن الناقلة والبحث عن أحوالهم ، واثبات الذين عرفناهم بشرائط العدالة والتثبت فى الرواية مما يقتضى حكم العدالة فى نقل الحديث بأن يكونوا أمناء فى أنفسهم . علماء بدينهم . أهـل ورع وتقوى وحفظ للحديث واتقان به وتثبت فيـه .

وأن يكونوا أهل تمييز وتحصيل، لا يشوبهم كثير من الغفلات، ولا تغلب عليهم الأوهام فيما حفظوه، ولا يشتبه عليهم بالأغلوطات.

وأن يعزل عنهم الذين جرحهم أهل العدالة، وكشفوا لنا عن عوراتهم فى كذبهم، وما كان يعتريهم من غالب الغفلة وسوء الحفظ وكثرة الغلط والسهو والاشتباه، ليعرف به أدلة هذا الدين (وأعلامه - ١) وأمناء الله فى أرضه على كتابه وسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم، وهم هؤلاء أهل العدالة، فيتمسك بالذى رووه ويعتمد عليه، وليعرف أهل الكذب تخرصا وأهل الكذب وهما، وأهل الغفلة والنسيان والغلط ورداءة الحفظ، فيكشف عن حالهم وينبىء عن الوجوه التى كان مجرى روايتهم عليها، ان كذبا فكذب، وان وهما فوهم، وان غلطا فغلط.

« طبقات الرواة » : ثم احتيج الى تبيين طبقاتهم ومقادير حالاتهم، وتباين درجاتهم : ليعرف من كان منهم فى منزلة الانتقاد والجهبذة والتنقير والبحث عن الرجال والمعرفة بهم - وهؤلاء هم أهل التزكية والتعديل والجرح.

ويعرف من كان منهم عدلا فى نفسه من أهل التثبيت فى الحديث والحفظ له والاتقان فيه - فهؤلاء هم أهل العدالة.

ومنهم الصدوق فى روايته، الورع فى دينه، المتثبت الذى يهم أحيانا وقد قبله الجهابذة النقاد - فهذا يحتج بحديثه أيضا.

ومنهم الصدوق الورع المغفل الغالب عليه الوهم والخطأ والسهو والغلط — فهذا يكتب من حديثه الترغيب والترهيب والزهد والآداب ، ولا يحتج بحديثه فى الحلال والحرام .

ومنهم من قد ألصق نفسه بهم ودلسها بينهم — ممن قد ظهر للنقاد العلماء بالرجال منهم الكذب ، فهذا يترك حديثه وتطرح روايته ويسقط ولا يشتغل به » أ ه .

ولقد كان هؤلاء الجهابذة فى سبيل الدين يبدون آراءهم فى أمس الناس بهم ، نصيحة للمسلمين ، وتقوى منهم . فزيد بن أبى أنيسة — كما يذكر صحيح مسلم بشرح النووى —

يقول : « لا تأخذوا عن أخى » .

ويسأل على بن المدينى عن أبيه فيقول :

« سلوا عنه غيرى » .

فيعيدون السؤال من جديد ، فيطرق،ثم يرفع رأسه،ويقول:

« هو الدين ، انه ضعيف » .

وكان أمر وكيع بن الجراح طريفا ، فقد كان أبوه رجلا صالحا ، لا مأخذ عليه ، غير أنه كان على بيت المال ، ومن أجل وظيفته هذه كان ابنه — اذا روى عنه — يقرن معه آخر .

لقد كان سلفنا رضوان الله عليهم يعنون بالاسناد عناية فائقة ، حتى لقد قال سفيان الثورى رضى الله عنه :

« الاسناد سـلاح المؤمن ، فاذا لم يـكن معه سلاح فبأى شىء يقاتل ؟ (١) » •

ويفسر الدكتور ناصر الدين الأسد العناية بالاسناد تفسيرا صادقا فيقول ص ٢٢٦ من كتابه النفيس:مصادر الشعر الجاهلى:

يبدو لنا أن مـرد التزام الأسناد المتصل فى رواية الحديث الى أمرين ، أمر داخلى ، وآخر خارجى •

أما الداخلى فمبعثه من نفس الـراوى ، ومصدره شعوره بالتحرج الدينى ، وذلك أنه ينقل كلاما من كلام رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهو الذى قال فى حديثه المشهور :

« من كذب على متعمدا فليتبوأ مقعده من النار » •

وفى الاسناد المتصل ما يجعل المحدث يطمئن الى أن غـيره من شيوخه وشيوخ شيوخه ، ثم التابعين والصحابة ، يشتركون معه فى تحمل تبعة هذا الحديث ونقله ، وأنه لا يستقل وحده بحمل هذا العبء ، وأن تبعته لا تعدو النقل الأمين لما سمعه عن شيـخ ثقـة ثبت •

وأما الأمر الخارجى فمرجعه الى سامعى الحديث من المحدث، وذلك أن الحديث يتضمن جـزءا كبيرا من السنة ، أو هو السنة كلها ، وهو من أجل ذلك مصدر من مصادر التشريع الاسـلامى، بل انه هو المصدر الثانى الذى يلى فى القيمة كتاب الله ، فلذلك

---

(١) أنظر كتاب السنة قبل التدوين ص ٢٢٣

كان ما رأيت منهم من التدقيق والتحقيق ، ومما يبعث الطمأنينة فى نفوس السامعين ، ويوحى اليهم بالثقة فى حديث المحدث — أن يصل بين عصره وعصر الرسول الكريم بسلسلة متصلة من الرواة المحدثين ، كلهم يشهد أنه سمعه ممن قبله حتى يصل الاسناد الى الصحابة فالرسول .

مصادر الشعر الجاهلى ص ٢٥٨ : ٢٥٩ . أ هـ .

ودخل فى هذا الباب—باب الاسناد—نقد الرواة ، وتصنيفهم الى فئات يأخذون من بعضها ويتوقفون عن البعض ، ويعلنون على ملأ من الناس كذب البعض ، وكان لهم فى هذا المجال شعور مرهف ، أو شعور مترف اذا أمكن هذا التعبير .

يقول الامام مالك رضى الله عنه :

لا يؤخذ العلم عن أربعة :

١ — رجل معلن بالسنة ، وان كان أروى الناس .

٢ — رجل يكذب فى أحاديث الناس ، وان كنت لا أتهمه أن يكذب على رسول الله صلى الله عليه وسلم .

٣ — وصاحب هوى يدعو الناس الى هواه .

٤ — وشيخ له فضل وعبادة اذا كان لا يعرف ما يحدث به .

ولقد كان يحيى بن سعيد القطان رحمه الله يترك حديث الكثير ممن يظهر بعض الناس بهم الخير ، فقيل له :

« أما تخشى أن يكون هؤلاء الذين تركت حديثهم خصماءك عند الله يوم القيامة ؟»

فقال : لأن يكون هؤلاء خصمى أحب الى من أن يكون خصمى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، يقول : « لم لم تذب الكذب عن حديثى » .

لقد اتفق المحدثون على ألا يأخذوا الحديث عن :

١ — الكذابين على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، بل لقد اختلفوا فى كفر هؤلاء ، بل لقد اختلفوا فى قبول الله لتوبتهم، ويكفى أن يعرف الكذب من أحدهم مرة واحدة على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فيسقط ذلك جميع أحاديثه .

على أن الكذب على الناس كان فى ترك حديث الكذاب، حتى ولو كان يتحرج من الكذب على رسول الله صلى الله عليه وسلم، كما ذكر ذلك الامام مالك ، رضى الله عنه فيما سبق .

ولأئمتنا فى تعقب الكذابين طرائف :

يقول الأستاذ السباعى فى كتابه النفيس : « السنة ومكانتها فى التشريع الاسلامى » :

مبينا بعض علامات الوضع فى السند،ومنها أن يروى الراوى عن شيخ لم يثبت لقياه له ، أو ولد بعد وفاته ، أو لم يدخل المكان الذى ادعى سماعه فيه ، كما ادعى مأمون بن أحمد الهروى أنه سمع من هشام بن عمار .

فسألة الحافظ بن حبان •

متى دخلت الشام ؟

قال : سنة خمسين ومائتين •

قال ابن حبان : فان هشاما الذى تروى عنه مات سنة خمس وأربعين ومائتين •

وكما حدث عبد الله بن اسحاق الكرمانى عن محمد بن أبى يعقوب ، فقيل له : مات محمد قبل أن تولد بتسع سنين •

وكما حدث محمد بن حاتم المكى ، عن عبد بن حميد فقال الحاكم أبو عبد الله : هذا الشيخ سمع من عبد بن حميد بعد موته بثلاث عشرة سنة •

وفى مقدمة مسلم : أن المعلى بن عرفان قال :

حدثنا أبو وائل ، قال : خرج علينا ابن مسعود بصفين ، وقال أبو نعيم يعنى الفضل بن دكين ، حاكيه عن المعلى ، أتراه بعث بعد الموت ؟ وذلك لأن ابن مسعود توفى سنة اثنتين أو ثلاث وثلاثين . قبل انقضاء خلافة عثمان بثلاث سنين •

ولا شك أن العمدة فى مثل هذه الحالة على التاريخ ، تاريخ مواليد الرواة ، واقامتهم ورحلاتهم ، وشيوخهم ، ووفاتهم، ولذلك كان علم الطبقات قائما بذاته علما لا يستغنى عنه نقاد الحديث •

قال حفص بن غياث القاضى ، اذا اتهمتم الشيخ فحاسبوه بالسنين ، يعنى : سنه ، وسن من كتب عنه •

وقال سفيان الثورى : لما استعمل الرواة الكذب استعملنا لهم التواريخ . أ هـ

ومن أعجب ما روى فى ذلك ، هو ما يرويه أبو أحمد بن عدى الحافظ عن الامام محمد بن اسماعيل البخارى صاحب الجامع الصحيح ، قال :

« سمعت عدة من مشايخ بغداد يقولون : ان محمد بن اسماعيل البخارى قدم بغداد ، فسمع به أصحاب الحديث، فاجتمعوا وأرادوا امتحان حفظه .

فعمدوا الى مائة حديث فقلبوا متونها وأسانيدها ، وجعلوا متن هذا الاسناد لاسناد آخر ، واسناد هذا المتن لمتن آخر، ودفعوا الى عشر أنفس لكل رجل عشرة أحاديث ، وأمروهم اذا حضروا المجلس أن يلقوا ذلك على البخارى ، وأخذوا عليه الموعد للمجلس فحضروا وحضر جماعة من الغرباء من أهل خراسان وغيرهم من البغداديين .

فلما اطمأن المجلس بأهله ، انتدب رجل من العشرة فسأله عن حديث من تلك الأحاديث فقال البخارى :

« لا أعرفه »

فما زال يلقى عليه واحدا بعد واحد حتى فرغ والبخارى يقول :

« لا أعرفه »

وكان العلمـاء ممن حضر المجلس يلتفت بعضهم الى بعض ويقولـون :

« فهم الـرجل »

ومن كان لا يـدرى القصة ، يقضى على البخـارى بالعجز والتقصير وقلة الحفظ .

ثم انتدب رجـل من العشرة أيضا فسأله عن حديث من تلك الأحاديث المقلـوبة .

فقـال :

« لا أعـرفه »

فسأله عن آخـر فقال :

« لا أعـرفه »

فمـا زال يلقى عليه واحدا واحـدا حتى فرغ من عشرته، والبخارى يقـول :

« لا أعـرفه »

ثم انتدب الثالث والرابع الى تمام العشرة حتى فرغوا كلهم من القاء تلك الأحاديث المقلوبة ، والبخـارى لا يزيدهم على أن يقول : « لا أعـرفه » .

فلما علم أنهم قد فرغوا التفت الى الأول فقال : أما حديثك الأول فقلت كذا ، وصوابه كذا ، وحديثك الثانى كذا ، وصوابـه كذا ، والثالث والرابع على الولاء حتى أتى على تمـام العشرة،

فرد كل متن الى اسناده وكل اسناد الى متنه ، وفعل بالآخرين مثل ذلك ،

فأقر الناس له بالحفظ ، وأذعنوا له بالفضل » .

قال الحافظ بن حجر بعد ما حكى هذه القصة « قلت : هنا يخضع للبخارى ، فما العجب من رده الخطأ للصواب ، فانه كان حافظا ، بل العجب من حفظه للخطأ على ترتيب ما ألقوه عليه من مرة واحدة » .

ونختم هذا الفصل بقول الأستاذ العلامة الكبير الشيخ شبلى النعمانى : « لما أرادت الأمم الأخرى من غير المسلمين أن تجمع فى أطوار نهضتها أقوال رجالها وروايتهم كان قد فات عليهم زمن طويل ، وانقضى بينها وبينهم عهد بعيد ، فحاولوا كتابة شئون أمة خلت . ولم يميزوا بين غث ذلك الماضى وسمينه ، وصحيحه وسقيمه ، بل لم يعلموا أحوال رواة تلك الأخبار ولا أسماءهم، ولا تواريخ ولادتهم .

فاكتفوا بأن اصطفوا من أخبار هؤلاء الرواة المجهولين وروايتهم ما يوافق هواهم ، ويلائم بيئتهم ، وينطبق على مقاييسهم .

ثم لم يمض غير زمن يسير حتى صارت تلك الخرافات كالحقائق التاريخية المدونة فى الكتب . وعلى هذا المنهاج السقيم صنفت أكثر الكتب الأدبية مما يتعلق بالأمم الخوالى وشئونها والاقوام القديمة وأخبارها والأديان السالفة ومذاهبها ورجالها .

أما المسلمون فقد جعلوا لرواية الأخبار والسير قواعد محكمة يرجعون اليها ، وأصولا متقنة يتمسكون بهـــا •

أولها : وأعلاها ألا تروى واقعة من الوقائع الا عن الـــذى شهدها ، وكلما بعد العهد على هذه الواقعة فمن الواجب تسمية من نقل خبرها عن الذى شهدها ، ثم تسمية من نقل ذلك الخبر عن الذى نقله عمن شهد ، وهكذا بالتسلسل من وقت الاستشهاد بالواقعة والتحدث عنهـــا الى زمن وقوعهـــا ، والتثبت عن أمانة هؤلاء الرواة ، وفقههم ، وعدالتـــهم وحسن تحملهم للخبر الذى يروونـــه •

واذا كانوا على خلاف ذلك ، وجب تبيينه أيضا •

وهذه المهمة من أشق الأمور ، ومع ذلك فان مئات من المحدثين تفرغوا لهـــا ، ووقفوا أعمارهم على تحرى ذلك واستقصائـــه وتدوينه ، وطافوا لأجله البلاد ، ورحلوا بين الأقطار ، باحثـــين دارسين لأحوال الرواة ، وكانوا يلقون المعاصرين لهم من الرواة لينقدوا أحوالهم •

واذا اطمأنوا الى سيرة فريق منهم سألوهم عما يعرفونه من أحوال الطبقة التى كانت قبلهم •

وقد اجتمع من هذا المجهود العلمى العظيم علم مستقل من العلوم الاسلامية أطلق عليه فيما بعـــد عنوان (أسماء الرجال) فتيسر لمن أتـــى بعدهم أن يقفوا على أقدار مئات الألـــوف من الحفاظ والعلماء والرواة وغـــيرهم •

الفصـــل الرابع

الوضاعون فى العصر الحاضر

يقول الله تعالى :

«يا أيها الذين آمنوا ان جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا أن تصيبوا قوما بجهالة ، فتصبحوا على ما فعلتم نادمين » •

والفاسق هو الذى لا تتوافر فيه شروط العدالة ، ولقد وضع أئمتنا شروطا للعدالة ، نذكر منها أن :

من شرط العدل : أن يتوافر فيه الصدق بمعناه الأعم الأشمل الذى يدخل فيه : عدم تزييف النص بزيادة أو نقصان ، والذى يدخل فيه أولا ، وبالذات عدم الكذب فى الرواية ، وعدم الكذب فى الحديث العادى •

ولا نريد هنا أن نستقصى ما قيل فى العدالة ، وانما نريد أن ننقل بعض نصوص لنرى ، فيما بعد تطبيقها على بعض المؤلفين الحديثين •

اننا نتبين دقة أسلافنا الدقيقة مما قاله الشعبى وأقسم عليه، وله مغزاه العميق فى بيان مدى ما كان عليه أسلافنا ، رضى اللـــه عنهم ، من تحر للصواب : يقول الشعبى :

« والله لو أصبت تسعا وتسعين مرة ، وأخطأت مرة ، لعدوا على تلك الواحـــدة » •

وكان أســـلافنا يعتبرون الاعلان عن الـــكذابين وفضحهم والتشهير بهم : من الدين : يقول عبد الرحمن بن مهدى :

سألت شعبة ، وابن المبارك ، والثورى ، ومالك بن أنس عن الرجل يتهم بالـــكذب ، فقالوا :

« انشره فانه دين » .

وعن يحيى بن سعيد قال : سألت سفيان الثورى ، وشعبة، ومالكا وابن عيينة عن الرجل لا يكون ثبتا فى الحديث ، فيأتينى الرجل فيسألنى عنـــه .

قالوا : أخبر عنه ، أنه ليس بثبت .

ولقد قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) :

« من كذب على متعمدا فليتبوأ مقعده من النار » .

وهذا الذى يكذب على رسول الله فيتبوأ مقعـــده من النار: فاسق يجب التشهير به ، وهو فاسق قـــد سقطت عدالته ، ومن سقطت عدالته فانه يجب على كل مؤمن أن لا يثق فى حديثه ولا فى رأيه ، أو نتائج بحثه . ومن ثبت عليه الـــكذب أو الغش ، أو الزيادة فى النص ، أو النقصان منه ، ليثبت بالزيادة أو النقصان رأيا يتفق مع هواه ، ومع نزعاته: ان كل من يفعل ذلك فقد سقطت عـــدالته .

على أن من يزيد فى النص أو ينقص منه، أو يحرف فيه: يتعمد ذلك للحط من انسان أو للنيل منه ، فانه ، من الناحية الانسانية قد نزل الى مرتبة تأنف الانسانية السليمة منها ، وانحط الى درجة تنفر الفطرة الطاهرة منها .

وبعد هذا نقـــول : انه نشأ فى زمننا هذا طائفـــة من الناس

يزعمون أنهم من الباحثين عن الأسلوب الحديث ، أسلوب النقد والتمحيص ، والتثبت فيما يزعمون •

وما من شك فى أن أسللوب النقد والتمحيص فى الحديث وفى رواية الحديث ، أسلوب البحث العلمى بأدق ما يمكن أن تعبر عنه هذه الكلمة ، انما وجد حقا عند أسلافنا من المحدثين ، انهم هم أصحاب المنهج العلمى الدقيق فى كتابة التاريخ ، أنهم المخترعون له ، ولا يزالون للآن أدق من اتبعه ، وطبقه فى صدق، والمؤرخون المحدثون لم يصلوا بعد الى ما وصل اليه سادتنا المحدثون القدماء من الدقة العلمية •

ولا نريد أن نتعجل فنقول :

ان هؤلاء الذين يزعمون فى العصر الحاضر أنهم قد تمحضوا للبحث العلمى : ليسوا من البحث العلمى فى شىء ولنتريث قليلا حتى نطبق عليهم مقاييس أسلافنا فى العدالة ، لنرى ما اذا كانوا أهلا للثقة أم ليسوا بأهل لها •

لقد كان أسلافنا يكتفون بثبوت الكذب مرة واحدة على شخص فيسقطونه من قائمة العد ، فاذا ثبت مثل ذلك على هؤلاء الكتاب المحدثين فاننا نسقطهم من طبقة العدول ، ونضعهم فى قائمة الذين وصفهم الله بالفسق ، حين قال فيهم :

« يا أيها الذين آمنوا ان جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا أن تصيبوا قوما بجهالة ، فتصبحوا على ما فعلتم نادمين » •

لقد أراد قوم ـــ من نقلة البحث العلمى ـــ التشكيك فىالسنة

بل هدم السنة رأسا ، وهؤلاء تقودهم أهواء مختلفة :

ولننظر الآن الى أى مدى يصل بهم تحريف الكلم عن مواضعه وتزييفه والكذب فيه ارضاء لنزعتهم الفاسدة : يقول المرحوم الأستاذ مصطفى السباعى فى كتابه النفيس : « السنة ومكانتها فى التشريع الاسلامى » : متحدثا عن الكذب والتحريف والبهتان الموجود فى كتاب « أضواء على السنة » [1] •

١ — يقول فى الهامش رقم ٣ من صحيفة ١٦٢ من كتابه ، عن عبد الملك بن عمرو رضى الله عنه :

وكان قد أصاب زاملتين من كتب أهل الكتاب وكان يرويها للناس « عن النبى » ثم نسب هذا القول الى ابن حجر فى فتح البارى ص ١٦٦ ج ١ • وعبارته فى الفتح ليس فيها «عن النبى» وانما زادها أبو رية ، ونسبها الى الحافظ بن حجر : ليؤكد للقارىء الشك فى أحاديث صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم،الذين كان بعضهم يستمع الى مسلمة أهل الكتاب يتحدثون عن أخبار الأمم الماضية ، فمنهم من كان ينقلها عنهم على أنها قصص متعلق بالماضين •

ولكن أبا رية كان يتهمهم بأنهم كانوا «ينسبونها» الى النبى، صلى الله عليه وسلم ! • •

ولم يكتف بذلك البهتان حتى نسبه الى الحافظ بن حجر وهو لم يقله قط ، ولا يقوله مسلم يعرف ما كان عليه هذا الجيل

---

(١) أضواء على السنة للاستاذ محمود أبو رية .

الفذ فى تاريخ الانسانية من صدق اللهجـــة ، واستقامة الدين، ووقوف عند حدود الله فيما أمر وفيما نهى،وهم يعلمون أن الله لعن الكاذبين ومقتهم ، وليس أقر لعيون أعداء الله والاسلام من أن يرموا بمـــا رماهـــم به : « أبو رية » .

٢ ــ ونقل فى ص ١١٥ عن ابن كثـــير فى البداية والنهايـــة ص ٢٠٦ ج ٨ أن عمر ، رضى الله عنه قال لكعب الأحبار :

لتتركن الحديث«عن رسول الله»أو لألحقنك بأرض القردة.

وعبارة ابن كثير : لتتركن الحديث عن « الأول » وليس فيها « عن رسول الله » ولكن « أمانة » أبى ريـــة أجازت له تحريف هذا النص ليثبت ما ادعاه من أن كعبا كان يحدث عن رسول الله، صلى الله عليه وسلم ، وأن الصحابة كانوا يأخذون عنه الحديث.

وهذه الفرية دسها المستشرقون اليهود أمثال «جولد زيهر» ليدعوا تأثير اليهودية فى الدين الاسلامى ، فتلقفها منهم المحقق العلمى « أبو رية » وتبرع لهم باثبات الأدلة .

٣ــ ونقل فى ص ١٦٣ عن البداية والنهـــاية لابن كثير ص: ١٠٦ ج ٨ أن عمر ، رضى الله عنه ، هدد أباهريرة بترك الحديث أو ليلقينه بأرض دوس « أو بأرض القردة » .

وهذه الزيادة « أو بأرض القردة » من مفتريات أبى رية على عمر وابن كثير معا .. وانما قالها عمر لكعب كما مر يهدده فى ترك الحديث عن «الأول» أى الأمم الماضية ــ كما نقل ذلك ابن كثير.

٤ــ نقل أبو رية فى عـــدة مواضع من بحثـــه عن أبى هريرة

نصوصا فى تكذيب عمر ، وعثمان ، وعلى ، وعائشـــة ، وغيرهم، لأبى هريرة، ثم نسبها الى ابن قتيبة فى «تأويل مختلف الحديث» .

وترجم أبو رية لابن قتيبة فى هامش كتابه بأنه كان لأهـــل السنة كالجاحظ للمعتزلة فى قوة البيان والحجة ، وقصده من ذلك تأكيد تضليل القارىء بأن رجلا كابن قتيبـــة له مكانته بين أهـــل السنة ، يطعن فى أبى هريرة هذا الطعن . دليل على صحة مايذهب اليه أبو رية من تكذيب أبى هريرة فيما يرويه عن رســـول الله، صلى الله عليه وسلم .

مع أن ابن قتيبة ألف كتابه : «تأويل مختلف الحديث» للرد على من طعن فى أئمة الحديث ، منذ عصر الصحابة حتى عصره، وأخبر أنهم : هم رؤساء الاعتزال كالنظام وأمثاله وآخرين . ثم ساق ابن قتيبة شتائم النظام لأبى بكر وعمر وعثمان وعلى وابن مسعود وأبى هريرة وغيرهم من كبار الصحابة ، ثم كر بالرد عليه وتفنيد ما قاله عن كل واحد من هؤلاء .

فأخذ «أبو رية» ما قاله النظام فى أبى هريرة ونسبه الى ابن قتيبة ، وتعامى عن رد ابن قتيبة على النظام ، وهكذا تكون الأمانة « الأمانة العلمية » عند هذا « المحقق العلمى » ...

٥ــ ونقل فى ص ١٩٥ عن المرحوم السيد رشيد رضا كلاما عن كعب ووهب بن منبه قال فيـــه :

«وما يدرينا أن كل الروايات–أو الموقوفة منها–ترجع اليها» مع أن العبارة : «ومايدرينا أن كل (تلك) الروايات الخ» فأسقط

أبو رية كلمة «تلك» والتى أشار بها السيد رشيد –رحمه الله– الى مرويات كعب ووهب عن كل أهل الكتاب ، لتجىء العبارة موهمة بأن كل روايات الصحابة ترجع اليها •• فانظر الى هذا الدس والتلاعب فى نقل النصوص لتتفق مع أهوائه وأغراضه •

هذه أمثلة لامجال للمناقشة فيها تدل على تلاعبه فى النصوص التى ينقلها ، ونسبتها الى غير قائليها •

وأشهد أنى لاأعلم أحدا أشد من المستشرقين تعصبا ودسا، بلغت جرأته فى تحريف النصوص والتلاعب فيها كما بلغت جرأة أبى رية ، فماذا نقول فى هذا « العلامة المحقق الأمين » ؟•

ان مقاييس أسلافنا ، بل مقاييس البحث العلمى الصحيح فى كل عصر ، تسقط عدالة أبى رية ، وتنفيه عن دائرة الباحثين وتسحب الثقة منه كلية •

لا ندرى لماذا يحاول بعض المسلمين أن يكونوا أبواقا للمستشرقين ، وللمستشرقين فى الشرق صبيان معروفون : ان لهم صبيانا مأجورين ، وان لهم صبيانا ملاحدة ، وان لهم صبيانا تابعين ومقلدين •

فلنتحدث اذن عن المستشرقين فى صورة صريحة: من المعروف أن الاستشراق — فى طائفة كبيرة منه — انما هو امتداد للحروب الصليبية •

ان الغربيين يريدون بكل وسيلة القضاء على الاسلام ، كقوة

لها ذاتيتها ، وأصالتها ، ومنهجها فى الحياة : وهم يستعملون من أجل ذلك كل الوسائل •

انهم يستعملون السلاح فى قسوة قاسية ، وفى عنف عنيف حينما يمكنهم استعمال السلاح ، فاذا لم تواتهم الظروف، استعملوا أسلحة أخرى : منها الاستشراق •

وكثيرا ما يرافق الاستشراق المدفع والدبابة فى الأقطار المستعمرة• وهدف الاستشراق افساد ما يمكن افساده من الدين، وبالتالى من الخلق ، وقد وضح – على مر الأيام – أن من خصائص الاستشراق أنه :

١– متأثر بالبيئة التى نشأ فيها المستشرقون : ولقد عبر عن هذه الحقيقة أبلغ تعبير أحد الغربيين الذين كانوا يريدون معرفة الحقيقة عن سيدنا محمد ، صلى الله عليه وسلم ، فقرأ كتبا عنه بعدة لغات ثم قال ·

ان صورة نبى الاسلام صورة فرنسية اذا كانت بقلم الفرنسيين ، وهى ألمانية اذا كانت بقلم الألمانيين ، وهى أمريكية اذا كانت بقلم الأمريكيين ، وهى• • • • وهذا فيما يتعلق بالبيئة الاجتماعية •

٢– والاستشراق متأثر بالبيئة الدينية ، ومن الطبيعى الواضح أنه اذا كان المستشرق مؤمنا بدينه : فانه يكتب عن الاسلام ، مؤمنا بأنه دين مزيف •

ولا أدرى كيف يعزب ذلك ـ مع بداهته ـ عن أذهان

المسلمين الذين يقرءون الاسلاميات بقلم المستشرقين ، فيولونهم شيئا من الثقة أو يولونهم كل الثقةحسب درجة استعداد القارىء للتقليد والمتـــابعة .

٣ — ومن المعروف اليقينى أن الاستشراق — فى أغلبـــه — يسير فى ركاب الاستعمار ، أو فى ركاب الكنيسة .

ان ذلك ظاهر واضح لكل من قرأ تاريخ الاستشراق وصلته بالكنيسة والاستعمـــار .

ومن أجل ذلك لم يكن غريبا أن يزيف الاستشراق الحقائق. وهو ان لم يزيفها وطنية : يزيفها تدينا وان لم يزيفها تدينا زيفها وطنية : فان لم تقو الوطنية وحدها أو التدين وحده على حمـــل الاستشراق على التزييف ، تكاتف التدين والوطنية معا فحملاه — متعاونين — على التزييف ، فزيف تدينا ووطنية .

انك لا تنتظر من قسيس يعيش فى الكنيســـة مثـــل : أزين بلاسيوس ، حينما يكتب عن الاسلام ، الا مسخا وتشويها كمـــا فعل ذلك حينما كتب كتابه المعروف بالعنوان الذى لا يتسم بأدب ولا مجاملة ، وهو « الاسلام المسيحى » .

أما القسيس لامنس فقد وهب حياته لهدم الاسلام عقيدة، ولهدم الاسلام تاريخا ، ولهدم الاسلام رجالا ، ولهدم الاسلام فى كل ما يتعلق به .

ان المستشرقين القساوسة : عدد لا يحصى ، أما المستشرقون المستشارون فى وزارات الخارجية الغربية، وفى وزارات الداخلية

الغربية ، وفى وزارات الدفاع والحربية ، وفى وزارات الاعلام والدعاية : فانهم أيضا عدد لا يكاد يحصى •

ماذا تنتظر من مستشرق هو مستشار فى وزارة الدعاية ، أو فى وزارة الحربية ، أو فى وزارة الخارجية ؟ ، ان السذاجة مهما وصلت درجتها لا يتأتى أن تولى ثقتها لمستشرق يأكل عيشه من سيره فى ركاب الاستعمار ، أو فى ركاب الكنيسة •

٤ - وطائفة من المستشرقين مستعدة أن تسير فى أى ركاب لأنها تسير فى ركاب الشيطان •

تلك هى طائفة المستشرقين اليهود •

ان كتاب بروتوكولات حكماء صهيون ، أو كتاب : « الخطر الصهيونى » يبين فى وضوح أن اليهود قد آلوا على أنفسهم أن يفسدوا على الانسانية دينها وخلقها وثقافتها • وقد منى الاسلام بطائفة من المستشرقين اليهود على درجة من الخبث والمكر والدهاء • يعجب لها الشيطان نفسه •

أرأيت الى الذكاء الحاد الخبيث حينما يستعمله صاحبه جاهدا لا يفتر فى أغراض شيطانية ، يريد بذلك أن يفسد على المسلمين مثلهم العليا فى الفضيلة والخير ، وايمانهم الراسخ فى الله ورسوله • • ؟

ان هذا الذكاء الحاد الخبيث الذى أخذ يعمل لا يفتر ، قد تركز فى بضعة أفراد من اليهود - كأخبث ما يكون اليهود - على رأسهم جولد زيهر •

ولقد كان جولد زيهر حركة لا تفتر فى الفســاد والتشويه، وساعده مال اليهود ودعايتهم ، فترجموا ونشروا أفــكاره فى كل مكان ، حتى لقد ترجمت كتبه الخبيثة الى اللغة العربية نفســها، ونشرت فى مختلف الأقطار الاسلامية : تذيع الكذب فى صــورة البحث العلمى ، وتنشر التشويه فى صورة الحقائق الثابتة ، وتدعو الى الشــك فيما لا يتأتى فيه الشــك ، واغترت به طائفــة من المغرورين ، وظنت أن أبحاثه علمية ، وأنه باحث متثبت ، وعالم يتحرى الحقـــائق •

والى هؤلاء ، والى كل من يثق بالمستشرقين نذكر مثالين اثنين — من عشرات الأمثلة — التى تعمد جولد زيهر ، أن يكذب ، وأن يحرف الكلم عن مواضعه فيها • وهذان المثالان انما هما نموذج لأعمال كثير من المستشرقين العلمية • يقــول المرحوم مصطفى الســباعى :

« زعم جولد تسيهر أن الزهرى اعترف اعترافا خطــيرا فى قوله الذى رواه عنه معمر :

« ان هؤلاء الأمراء أكرهونا على كتابة أحاديث » وأن ذلك يفهم استعداد الزهرى لأن يكسو رغبات الحكومة باسمه المعترف به عند الأمة الاسلامية•قدمنا لك عند الحديث عن صدق الزهرى وجرأته ، أنه أبعد الناس عن الرضوخ لأهواء الحاكمين ، وذكرنا لك من الوقائع بينه وبين خلفاء بنى أمية ، ما تجزم معه بأنه ليس ذلك الرجل المستعد لأن يكسو رغبات الحكومة باسمه المعترف به

عند المسلمـــين •

أما هذا النص الذى نقله ففيه تحريف بســـيط يقلب المعنى رأسا على عقب ، وأصله ، كما فى ابن عساكر وابن سعد :

أن الزهرى كان يمتنع عن كتابة الأحاديث للناس — ويظهر أنه كان يفعـــل ذلك ليعتمـــدوا على ذاكرتهم ، ولا يتـــكلوا على الكتب ، — كما ذكرنا من قبل — فلما طلب منه هشام وأصر عليه أن يملى على ولده ايمتحن حفظه كما تقدم ، وأملى عليه أربعمائة حديث ، خرج من عنده وقال بأعلى صوته : « أيها الناس انا كنا منعناكم أمرا قد بذلناه الآن لهؤلاء ، وأن هؤلاء الأمراء أكرهونا على كتابة « الأحاديث » فتعالـــوا حتى أحدثـــكم بها ، فحدثهم بالأربعمائة « الحديث » •

هذا هو النص التاريخى لقول الزهرى ، وقد رواه الخطيب بلفظ آخر وهـــو :

كنا نكره كتاب العلم — أى كتابته ، حتى أكرهنا عليه هؤلاء الأمراء ، فرأينا ألا نمنعه أحدا من المسلمين (١) » أ هـ •

فانظر كم الفـــرق بين أن يـــكون قول الزهرى ، كما روى جولد تسهير « أكرهونا على كتـــابة أحاديث » وبين أن يكون كما رواه المؤرخون :« أكرهونا على كتابـــة الأحاديث » أو كما رواه الخطيب « على كتاب العلم ؟ » ثم انظر الى هذه الأمانة العلمية «حذف»« ال »من (الأحاديث) فقلبت الفضيلة رذيلة • • حيث

(١) تقييـــد العـــلم ص ١٠٧

كان النص الأصلى يدل على أمانة الزهرى واخلاصه فى نشر العلم فلم يرض أن يبذل للأمراء ما منعه عن عامة الناس الا أن يبذله للناس جميعا ، فاذا أمانة هذا المستشرق تجعله ينسب للزهرى أنه وضع للأمراء أحاديث أكرهوه عليها ، فأين هذا من ذاك ؟ ؟

أما ما نقله « جولد تسهير » من قول وكيع عن زياد بن عبد الله من أنه كان مع شرفه فى الحديث ـ كـذابا . فهذه احـدى تحريفات هذا المستشرق الخبيث ، فأطل العبارة كمـا وردت فى التاريخ للامام البخارى :

وقال ابن عقبة الدوسى عن وكيع : هو (أى زياد بن عبد الله) أشرف من أن يـكذب (١) .

فأنت ترى أن وكيعا ينفى عن زياد بن عبد الله الكذب مطلقا، لا فى الحديث فحسب ، وأنه أشرف من أن يكذب ، فحرفها هذا المستشرق اليهودى الى : أنه كان ـ مـع شرفه فى الحديث ـ كذوبا . وهكذا تكون أمانة هذا المستشرق ؟ ؟ ؟

ان المستشرقين وأتباعهم من الملاحدة والمأجورين والمقلدين هم الوضاعون فى العصر الحاضر .

ولكن الله سبحانه : قد هيأ للسنة تدوينا صحيحا ، وتسجيلا متقنا ، ورجالا كرسوا حياتهم لهـا ، يدافعون عنها عصرا بعـد عصر ، وينشرون أريجها جيـلا بعد جيل ، مذيعين وشـارحين، ناشرين ، وموضحين .

«والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا وان الله لمع المحسنين»

---

(١) القسـم الأول ج ٢ ص ٣٢٩

من مراجع الكتاب

١ ـ صحيح البخارى .

٢ ـ صحيح مسلم .

٣ ـ سيرة ابن هشام .

٤ ـ رياض الصالحين .

٥ ـ الأنوار المحمدية ـ للنبهانى .

٦ ـ السنة ومكانتها فى التشريع الاسلامى : للمرحوم الأستاذ مصطفى السباعى .

٧ ـ السنة قبل التدوين ـ للأستاذ عجاج نويهض .

٨ ـ الرسالة للامام الشافعى .

٩ ـ رجال الفكر والدعوة لأبى الحسن الندوى .

١٠ ـ الرسالة المحمدية للسيد سليمان الندوى .

١١ ـ الحديث والمحدثون للشيخ محمد أبو زهو .

الفهـــرس

***

رقم الايداع ١٩٧٨/٢٧٠٦

طبع بمطـــابع الأزهر

الــكتاب القــادم

شــــراب الأرواح

تأليــف

الامام الســيد

محمــد ماضى أبو العزايم

الثمن ١٠ قروش

طبع بمطابع الأزهر

السنة الشريفة

محمود